المسرح الديني في العصور الوسطى

تأليف

جان فرابييه   ا. م. جوسار

ترجمة: الدكتور محمد القصاص

مراجعة: الدكتور محمد مندور

... ارشاد القومي
المؤ... ...رية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

المسرح الديني

في العصور الوسطى

نصوص مختارة، تحليل، تعليقات
هوامش تفسيرية

تأليف

جان فرابييه — ا. م. جوسار

ترجمة — مراجعة

الدكتور محمد القصاص — الدكتور محمد مندور

هذه ترجمة كتاب :

LE THÊATRE REGEUX AU MOYENAGE

Par

Jean Frappier & A. M. Grossart

جـــــدول زمنى

للمسرح الدينى فى العصور الوسطى

القرن التاسع : المجاز الحوارى Quem Quaeritis (قداس لعيد الفصح) لتوتليون Tutilion راهب سان جال .

القرن العاشر : مجاز حوارى لقداس عيد الميلاد من أجل دير سان مارسيال بليموج .

القرن الحادى عشر :

(دراسات طقوسية باللاتينية عن القيامة) .

القرن الثانى عشر : تمثيليات مدرسية (باللاتينية واللغة العامية) دانيا (بوفيه) ،القديس نيقولا ولعزار (فلورى على شاطئ اللوار)، درامة العذراوات العاقلات والعذراوات الحمقاوات (دير سان مارسيال فى ليموج) ، إهتداء القديس بولس ، دانيال، تمثيلية القديس نيقولا .

النصف الثانى من القرن الثانى عشر : قطعة من تمثيلية البعث (باللهجة الإنجليزية النورمندية) .

نهاية القرن الثانى عشر :

تمثيلية آدم . لجان بودل (المتوفى ١٢١٠) :

تمثيلية القديس نيقولا .

القرن الثالث عشر :

البداية : قصة آلام منسوبة للشعراء المتجولين .

الوسط ، روتبيف : معجزة تيوفيلوس .

القرن الرابع عشر :

البداية : آلام [مدينة] أوتان . آلام پالاتينوس .

الوسط : الآلام البروڤنسية .

١٣٧١ : جمعية الآلام بنانت .

١٣٨٠ : جمعية الآلام بباريس .

النصف الثانى : معجزات السيدة العذراء بالشخصيات . تمثيليات مخطوطة بمكتبة سانت جنفييف (لعلها تكون رصيد جمعية إخوان الآلام الباريسية) .

القرن الخامس عشر:

١٤٠٢ : خطابات الإجازة الممنوحة من شارل السادس للجمعية الباريسية للآلام (أول مسرح دائم يتقاضى أجرا) .

الثلث الأول : آلام [مدينة] سيمور . أوستاش ماركاد Eustache Marcade : آلام [مدينة] آراس .

حوالى ١٤٥٠ : آرنوجريبان Arnoul Greban :
سر الآلام ، فى حوالى أربعة أيام .

١٤٨٦ : جان ميشيل Jean Michel :
سر الآلام ، فى عشرة أيام .

القرن السادس عشر:

١٥٠١ : كتاب خطة السير لمديرتمثيل سر الآلام فى مونسى .

١٥٤١ : تمثيل «أعمال الرسل ، فى أربعين يوما» ، فى باريس.

١٥٤٧ : تمثيل سر الآلام فى فالنسين .

١٥٤٨ : قرار برلمان باريس بمنع تمثيليات الآلام .

القرن السابع عشر :

١٦٧٦ : إلغاء جمعية الآلام .

ملاحظة : نسير فى هذا الكتاب على النمط الذى سار عليه العمل فى كتب العصور الوسطى من هذه المجموعة ، فنقدم من كل مؤلف ترجمة بعض أجزائه بالفرنسية مصحوبة ببعض التحليلات ، مع فقرات من النص بلغته الأصلية .



المسرح الدينى فى العصور الوسطى

مذكرة

الأصول الطقوسية :

هل قامت العصور الوسطى باختراع الفن المسرحى بكل مقوماته من جديد ؟ إننا إذا طرحنا السؤال على هذا النحو من الإطلاق ، لم يكن فى وسعنا إلا أن نجيب عليه بالنفى . فقد كان رجال الدين يعرفون المسرح اللاتينى تمام المعرفة ، ولكن تأثير هذا الأدب كان تأثيرا نظريا أكثر منه فعليا ، كما كان ينحصر فى المسرح الهزلى . والحقيقة أن سلسلة التقاليد المسرحية كانت قد انقطعت خلال عدة قرون ، ولكن كان لا بد للغريزة الدرامية ــ التى هى سمة دائمة للطبيعة البشرية ــ من أن تجد وسيلة لإشباع غلتها ، وكانت الحياة الدينية أول ما قدم لها هذا الغذاء . وفى هذه النقطة يلتقى المسرح الإغريقى ومسرح العصور الوسطى من حيث نشأتهما .

كل الأديان درامية الروح مادام الإنسان فيها يواجه مقدوره . ولعل

المسيحية تفوق غيرها من الديانات فى أنها تعنى أكثر منها بإبراز درامة العالم والضمير البشرى هذه ؛ وذلك أن تاريخ البشرية ليس فى نظرها إلا مأساة تنتهى بالصليب وآلامه ، والعالم عبارة عن مسرح ذى ثلاثة مناظر هى : السماء (الفردوس) والأرض ، والجحيم ؛ أما الضمير البشرى فموطن لنزاع لا يفتأ يتجدد بين الإنسان القديم الذى يرزح تحت نير الخطيئة الأولى ، والإنسان الجديد الذى خلقه التعميد خلقا آخر . وقد استولت الطقوس الدينية على هذه المادة الدرامية، واستخدمتها وأحاطتها بحشود من الأناشيد والملابس والإشارات الكنسية التى جعلت من هذه الحفلات الدينية مشاهد من شأنها أن تعلم الشعب المؤمن ، وأن تثير مشاعره أيضا . فالكنيسة هى التى « وجدت فيها البشرية هذا النوع من القلق الذى تبحث عنه فى المسرح » وذلك على حد تعبير الأستاذ « جوليان بندا Julien Benda »[1] .

واللباس الدينى وحركات القسس ـ التى تسير على نظام فى غاية الدقة ـ هى الجزء التمثيلى فى إقامة الصلوات ، وكانت أهميتها فى جذب انتباه المؤمنين تزداد كلما قلت قدرة الشعب فى فهم اللغة اللاتينية ، وتشهد كتب الطقوس

---

(١) فى مقال له نشر فى المجلة الفرنسية الجديدة بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ ـ (ص ٨٢٥) بعنوان « نعيم إيلوتير Delice d'Elauthère » .

بأقدميتها . يقول المنسنيور دوشين Du Chéne فى كتابه (أصول الطقوس المسيحية ص ٢٠٢ - Origines du Culte Chrètien): « أصبحت العباءة الدلماسية[1] - شعارا خاصا بالبابا ورجاله ، وذلك - على مايبدو - بعد أن أخذت عامة الناس تنظر إليها على أنها لباس عتيق » . وقد ظهرت الشعارات الرمزية التى من قبيل الطيلسانة والحريم[2] منذ زمن مبكر، وكان الممثل الذى يلعب دور الفادى (الرمز) يلبس العباءة الدلماسية . فى تمثيلية آدم.

ولا نزال نرى العناوين التى كانت تنظم حركات الممثلين فى الدرامات الدينية الأولى مكتوبة بصورة واضحة فى أنموذج الكتب التى خصصت لتنظيم القداسات .

وفى بعض الأعياد كانت الإحتفالات الدينية تتخذ لها طابعا دراميا أكثر بروزا من المعتاد ،وقد احتفظت بهحتى يومناهذا ، وفيها كان المصلون يقومون أحيانا ببعض الأدوار ، ومن أمثلة ذلك : احتفالات عيد السعف التى تصحب بحوار يتلى على باب الكنيسة ، وصلاة الصليب التى تقام يوم الجمعة الكبيرة، ومباركة شمعة الفصح فى يوم السبت المقدس(سبت النور)

---

(١) نسبة إلى دلماسيا ، وهى عباءة بيضاء مطرزة باللون الأرجوانى يلبسها رجال الدين أثناء القداس.

(٢) نوع من اللباس يشبه لباس الإحرام .

وكانت رموز هذا الاحتفال الأخير تشرح فى بعض الكنائس الإيطالية بواسطة منمنمات مرسومة على الأسطوانة الورقية التى يقرؤها الشماس ، تلك المنمنمات التى كانت ترتب على ظهر القرطاس بطريقة تجعل المصلين يرونها بالتدريج كلما بسط الشماس مخطوطته .

استطاع العنصر الغنائى أن يحتل مكانا هاما فى الطقوس منذ عصر قديم جداً ، فكان إنشاد المزامير يتناوب الدور مع تلاوة النصوص فى الجزء الأول من القداس ، وكان المصلون يرددون الأجزاء الختامية فى صورة حوقة .

ويرجع الفضل فى إدخال غناء المزامير ، وإنشاد الآيات التمهيدية التى تسبقها فى أوربا إلى القديس أمبرواز Saint Ampraise فى القرن الرابع الميلادى ، كما أنه هو أيضا الذى أدخل فى الطقوس عادة إنشاد الشعر الفردى بأناشيده اللاتينية المنظومة التى اتخذها الشعر المسيحى أنموذجا له طوال قرون عديدة . ولا شك أن ظهور هذين العنصرين :ـ الإبتداع الفردى ،ونظام الجوقتين المتناوبتين ـ يسمح لنا جيدا بأن نفهم كيف أمكن للفن المسرحى أن يصدر عن الطقوس الدينية ، فهنا نجـــد الفن يحتل مكانه فيها .

ولـكن هذه البراعم الأولى لم تتفتح إلا بعد قيام النهضة الكارولنجية .

فقد عمل أحد الأديرة العظيمة ذات الثقافة ، وهو ديرسان جال Saint Gall فى سويسرا على أن يصبح مركزا للخلق الشعرى الحقيق . فى هذا الدير اخترع الراهب توتيلون Tutilon الفقرات المجازية Trores ، وهى شروح غنائية منظومة يقصد بها زخرفة النص وتوسيعه ، وقد وضعت بعض هذه الفقرات فى صورة حوار ، ومن أمثلتها تلك التى تقال فى افتتاح صلوات عيد الفصح ، ومنها :

— « عمن تبحثن فى القبر المقدس ، ياخادمات المسيح ؟

— عن عيسى النصرانى ، يا سكان السماء .

— إنه ليس هنا ، لقد بعث ، كما سبق له أن قال : فهيا ، وأعلن أنه قد خرج حيا من القبر المقدس» .

وكانت هذه هى نقطة الانطلاق ، وقد أخذ الابتكار الذى يصح لنا أن نطلق عليه الأبتكار الدرامى يتبلور حول موسمين من مواسم السنة ، وهما عيد الفصح الأول ثم عيد الميلاد ، اللذان يعتبران بمثابة البؤرتين للطقوس الدينية .

وفى القرن العاشر نرى سان مارسيال الليموجى Siant Martial de Limages يقدم لنا مثالا من هذا النوع من الفقرات الحوارية الخاصة بالصلوات الافتتاحية لعيد الميلاد.

وإذا أردنا أن نحيط بجميع العناصر التى ساهمت فى نشأة الأدب الدرامى الكنسى ، فإنه يجب علينا أن نضيف عنصر التلاوة إلى الغناء ، وهى اشتراك عدة أصوات فى قراءة النصوص المقدسة على نحو ما يفعل اليوم بالنسبة لقراءة الإنجيل أثناء الأسبوع المقدس ، وبهذه الصورة أيضاً كانت تشكل بالشكل الدرامى إحدى المواعظ فى قداس ليلة الميلاد ، وهى الموعظة التى تنسب خطأً إلى القديس « أوغسطين » والتى نسمع فيها الأنبياء يتداولون الكلام واحداً واحداً لكى يعلنوا قدوم المسيح .

هكذا ولدت الدرامات الطقوسية المكتوبة باللغة اللاتينية فى الأديرة ومنها انتقلت إلى الطقوس الدينية فى معظم الكنائس ، وهى قداسات درامية حقيقية ، وتكون جزءا لايتجزأ من الطقوس المقررة . والقرن الحادى عشر هو العصر الذهبى للدرامة الكنسية ، ولكنها عاشت بعده زمنا طويلا . وهذه هى الدرامات الرئيسية : قداس الرعاة ، وقداس القديسين الأبرياء ، وسجود المجوس ـ وهذه بالنسبة لدورة عيد الميلاد ـ ثم القيامة ، وحجاج عمواس ، بالنسبة لدورة عيد الفصح .

وقد أمدتنا نهاية القرن الثانى عشر بنصين عظيمى الأهمية ، وهما : قطعة من القيامة ، وتمثيلية آدم ، اللتان ترتبطان أشد ارتباط بالطقوس

الـكنسية من حيث موضوعاهما، ومن حيث إدخال بعض النصوص الطقوسية في الدرامة ، ولـكنهما تتميزان عنها بميزتين جوهريتين ،وهما : أن الحوار فيهما باللغة العامية ولم يعد باللاتينية ، وأن الحدث لم يعد يجرى فى الكنيسة ، بل فى مسرح مقام فى الساحة التى أمامها ، أو ربما فى الدير . ولقد نشأ المسرح الفرنسى من هذه الأعمال التى أطلق عليها اسم الدرامات شبه الطقوسية ، والتى ستؤدى إلى ظهور الأسرار .

وقد احتفظت الدرامة الدينية فى العصور الوسطى من أصلها الطقوسى بطابع المسرح الـكامل ، حيث نرى المناظر والغناء والموسيقى والحوار — بل والرقص — يتوالى كل منها بدوره للمساهمة فى إثارة المشاهد ،أو امتاعه، أو تعليمه .

الجمهور :

المسرح فن اجتماعى بجوهره، ولذلك لا يمكن لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، مهما أسهبنا فى دراسة ما للجمهور من أهمية فى تاريخ المسرح . فلو كان لدينا معلومات أوسع مما لدينا الآن عن البيئة التى شاهدت ميلاد كل مسرحية من المسرحيات التى بقيت لنا ، لـكان فى وسعنا أن نفهم المسرح الدينى بصورة أجدى وأخصب .

ولكن من سوء الحظ أن معلوماتنا عن هذه البيئة حتى القرن الخامس عشر ضئيلة القدر وغير مؤكدة ، ولذلك نرانا مضطرين إلى الاعتماد على الفروض وضروب التعميم .

وهذه هى الظروف التى تحيط بنا حينما نحاول الإجابة عن هذا السؤال وهو : متى وكيف خرجت الدرامة الدينية من الكنيسة ؟ ولعله يجدر بنا هنا أن نتبع رأى الأستاذ « سيبيه Sebet الذى يعزو المبادرة فى هذا الصدد إلى المدارس التابعة للأديرة ، وينسب نصيباً من الأهمية يفوق ماتنسبه الكتب المدرسية عادة إلى ذلك النوع من الدرامة الذى يبدو أنه قد نشأ حقيقة عن الدرامة الطقوسية ، وإن كانت له مميزاته الخاصة وتطوره المختلف ، ونعنى به الدرامة المدرسية . و إذا أردنا أن نلجأ إلى بعض المقارنة لكى نزيد هذه المسائل المتعلقة بالأصول إيضاحاً ، كما هو الحال حين نقارن نشأة مسرحنا فى العصور الوسطى بنشأة التراجيدية الإفريقية ، أفلا يحق لنا أن نفكر فى الدور الذى لعبته تراجيديه المدرسة المدنية فى تكوين مسرحنا الكلاسيكى ؟ الواقع أن « المعجزة » قد نشأت من أجل جمهور الطلبة بمناسبة أعياد القديسين .

هــذه هى البيئة التى نشأ فيها ذلك الإبتداع الهائل ؛ أعنى محاكاة الحياة اليومية محاكاة مطعمة بالمواضيع التقليدية التى تفرضها حياة التعبد .

يقول الأستاذ سيبيه فى كتابه « الأصول الـكاثوليـكية للمسرح الحديث (Origines Catholiques du théatre Moderna) ، ص ٦٣ : « كانت هذه الأديرة الـكبيرة خلال القرن الثانى عشر مراكز للعبادة والحضارة ، ومزارع نموذجية ، ومحترفات للفن والصناعـة ، ومؤسسات للتعليم العام . كل ذلك فى آن واحد . وفيها كان عيد « القديس نيقولا » الذى يحتفل به فى السادس من ديسمبر يعتبر بداية طيبة لمتع عيد الميلاد » . فـكان من الطبيعى جدا أن يقوم الطلبة فى مثل هذه الأعياد بمسرحة أساطير القديس بصورة تذكرنا بضروب الحوار الذى أشاعته الطقوس ، ولـكن بنصيب من الحرية لم تـكن لتسمح بـه تلك الطقوس .

ويقول أيضا الأستاذ سيبيه (فى المرجع نفسه ص ٨٤) : « كان إذن ممثلو « اهتداء القديس بولس » من بين الطلبة ، وربما انضم إليهم أستاذ أو أستاذان من أساتذتهم . أما المشاهدون فـكانوا ينحصرون فى أشخاص الدير ابتداء من رئيسه حتى أقـل أخ من الإخوة الخادمين ، وأصغر تلميذ به ، وأحقر تابع من توابعه ، يزيد عليهم أقارب التلاميذ والسـكان المجاورون بوجه عام . وإذا كانت المسرحية تـكتب باللاتينية فإنها كانت لاتينية الـكنيسه ، كما كانت تدعمها بعض سطور من الغناء الدينى التقليدى ،

ومن ثم كان لها من الأثر القوى ـ حتى على أشد الفلاحين إيغالا فى الأمية ـ ما لأجمل الصلوات .

هذا إلى أن التمثيل كان يفسر نفسه بنفسه بالنسبة لنفوس تعودت منذ طفولتها على المناظر العظيمة التى يتضمنها تاريخ المسيحية .

هذه إذن هى الدرامه التى انبعثت من الكنيسة منطوية على مواضيع متنوعة كل التنوع ، مألوفة كل الألفة ، ومزودة بوسائل فنية مفرطة فى الحرية. فأين وكيف أتيح لها أن تصل فى نهاية القرن الثانى عشر إلى هذا المستوى من التقدم الحاسم ، وأن يرتدى حوارها ثوب اللغة العامية ؟ أغلب الظن أن المسرح قد ساهم فى حركة الخلق الأدبى والفنى العامة التى تميز بها النصف الثانى من هذا القرن. ولكن لعله يمكننا أن نقرر ـ على وجه التحديد ـ أن التطور الجديد للآداب الدرامية إنما يرجع إلى تغلب المدارس الأسقفية على مدارس الأديرة حوالى هذه الفترة ؛ وذلك للأهمية المتزايدة لهذه المدارس التى منها بزغت الجامعات مرتبطة ـ كما نعلم ـ بنشوء تحرر المدن وانتشاره ، ذلك التحرر الذى أدى إلى انتقال مراكز الثقافة ، يقول الأساتذة « باريه . و برونتيه وترمبليه Paré, Brunetet Tremblay فى « نهضة القرن الثانى عشر ص٢٠ » Larenaissance du XII Siécle [1] « فتحت المدرسة والثقافة أبوابهما لطبقات جديدة ، فتغيرت روحهما بتغير أهليهما ...

(١) ط باريس — اوتاوة ١٩٣٣ .

وأصبح أصحاب الثقافة كلهم من قبيل الشمامسة بطبيعة الحال ، فصارت الروح الثقافية روحا دنيوية ، وإن لم تكن مدنية ، ولكنها أضحت تسمح بإشباع أذواقهم الأدبية، وإخراج بحثهم العلمى من الوصاية الدينية الخرقاء، أضحت روح تنافس وتجمع فى آن واحد ؛ لأن هؤلاء الأساتذة أصبحوا عرضة للتنافس والتحاسد، وللدخول فى مناقشات حادة على قارعة الطريق، وفى الوقت نفسه أخذوا يشعرون شيئا فشيئا بضرورة تفاهمهم فيما بينهم ، لكى يحافظوا على حقوقهم وامتيازاتهم ضد البرجوازيين الذين خرجوا من بين صفوفهم . » فالمدرسة الأسقفية أصبحت تعكس ـ بنظامها ونشاطها ـ جميع السمات التى تميزت بها المدينة .

هذه هى البيئة المنتعشة بالحياة إلى أقصى حد ، التى ينبغى لنا أن نجعلها مقراً لانتصار المسرح المكتوب باللغة العامية على الأقل ، إن لم يكن لنشأته .

وقد لاحظنا فى الاقتباس السابق ، المكانة التى تحتلها فكرة «التجمع [1]» فى هذه البيئة . وهذه أيضاً سمة جديدة لن نعتبر مبالغين

---

(١) وهذا أيضا هو معنى كلمة Universitas أى مجمع مهنى أو نقابة .

مهما أطنبنا فى الكلام على أهميتها فى تاريخ المسرح . وذلك أن هذه الجماعات ذات الطابع الدينى ـ سواء أكانت جمعيات مهنية أم أدبية ـ هى التى من أجلها عمد الشمامسة المتحررون من الوصاية الكنسية ـ إن قليلا وإن كثيراً ـ إلى كتابة التمثيليات والمعجزات ، وهى التى ستزود « الأسرار » بممثليها .

المؤلفات .

من شأن أمثال الجدول الزمنى للمؤلفات المسرحية فى العصور الوسطى الذى صدرنا به هذا الكتاب ، أن توحى إلينا بأن النشاط الدرامى قد منى بالفتور أو التوقف فى بعض الفترات ، وهذه فكرة يجب أن نحذر القارىء منها .

فمن المحتمل أن تكون الثغرات التى يكشف عنها جدولنا ، إنما ترجع لمجرد فقدان بعض الوثائق ، بل لعله يحق لنا أن نأمل فى أن يقل جهلنا بكثير من النقط بفضل البحوث المستقبلة .

مات جان بودل Jean Bodel سنة ١٢١٠ ، وقد كان شاعراً متجولا فى آراس Arras ، وسبق له أن كتب أغنية من أغنيات المفاخر

سماها « القديسين » [1] : وقد قام فى زمن قريب من زمن ظهور تمثيلية « آدم » – على مايبدو – بعلاج موضوع سبق أن عالجه باللاتينية هيلير Hilaire تلميذ أبيلار Abélard . فكتب تمثيليته عن القديس نيقولا يختلط فيها – بصورة غريبة – بعض مناظر ألحانه الواقعية بنوع من الإلهام البطونى الذى يذكرنا بكورنى فى بعض الأحيان . وحوالى منتصف القرن الثالث عشر قام روتبيف Rutebœuf – الذى لعله يفوق سابقه فى الشعر الغنائى – بإنشاء نوع من الأنواع سنرى أنه سيصل إلى درجة كبيرة من الاتساع خلال القرن التالى ، وهو نوع معجزات العذراء ؛ وذلك حين كتب لإحدى الجمعيات « معجزة تيوفيل » التى تعتبر تخطيطاً أوليا لأسطورة فاوست يعتريه النقض فى بعض الأحيان ، ولكنه لايخلو دائماً من فن ، كما يمتاز بقوة التأثير .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ازداد الإقبال على مشاهد الآلام . و يبدو أنها منبعثة من الدرامات الطقوسية ، ولكنها تأثرت أيضاً بالقصائد القصصية التى كان يؤلفها الشعراء المتجولون . وقد ازدهر هذا النوع إلى حد أن قامت فى أواخر القرن جمعيات فى أماكن مختلفة لاهدف لهـا إلا العمل على استغلاله : وسنرى أن وجود هذه الجمعيات

الدرامية سيصبح فى سنة ١٤٠٢ من الأمور المعترف بها رسمياً عن طريق خطابات البراءة الصادرة من شارل السادس إلى جمعية الآلام الباريسية التى كانت تعرض تمثيلها فى إحدى قاعات مستشفى الترينيتيه . وفى هذه الخطابات أطلق إسم الأسرار [1] Mistères على هذه المشاهد لأول مرة .

وتوجد الآن فى المكتبة الأهلية مخطوطة تحتوى على أربعين «معجزة من معجزات السيدة العذراء بأشخاصها» ترجع كلها إلى النصف الثانى من القرن الرابع عشر : ومن المحتمل أنها تكون قائمة إحدى الجمعيات المجاورة لسوق باريس . وتتميز هذه المسرحيات المستقاة من مصادر مختلفة كل الاختلاف بأنها تقدم لنا فى بعض مناظرها لوحة للحياة البرجوازية المعاصرة مستمدة من الواقع ، كما أنها تحتوى ـ بوجه عام ـ على خطاب فى تكريم العذراء ، وتنتهى جميعها بمعجزة منها .

ويتميز القرن الخامس عشر بانتصار الأسرار : وفى أول الأمر كانت هذه الأسرار قصيرة نوعا ما ، وبسيطة الأسلوب ، ثم بدأت تتسع شيئاً فشيئاً ، وتجمع فى حوارها الشجى فى غالب الأحيان جميع القوالب الغنائية المعروفة

---

(١) بمعنى (تمثيل أو عرض درامى) نقلا عن المعنى « خدمة ، قداس ، احتفال » الذى أضيف إلى كلمة « سر » (Mysterium بلاتينية العصور الوسطى ، بسبب الخلط بينها وبين كلمة Ministerium التى لها هذا المعنى نفسه .

حتى ذلك العهد ، ويعتبر « أوستاش ماركاديه Eustache Marcadet — قاضى كوربى Corbie الكنسى — أول من أشار إلى الفكرة الرئيسية للموضوع فى مقدمة يناقش فيها مقدور الإنسان أمام الله بين « العدل » و« الرحمة » ، وذلك فى تمثيلية عن الآلام التى تستغرق أربعة أيام و ٢٥٠٠٠ بيت من الشعر . وقد اتبع هذه الخطة نفسها أرنوجريبان Arnoul Gréban وتماها حوالى سنة ١٤٥٠ حتى بلغت ٣٤٤٥٠ بيتاً : وتشهد بنجاح هذا العمل ، الذى كتب أصلا للجمعية الباريسية ، مخالصة أعضاء بلدية ابفيل Abbville الذين حصلوا على المخطوطة لتمثيلها فى مدينتهم، كما تشهد بذلك الشهرة التى ظلت تتمتع بها التمثيلية حتى منتصف القرن السادس عشر .

وقد عدلت هذه المسرحية فى سنة ١٤٨٦ ، و بسطت حتى أصبحت تستغرق عشـــرة أيام و ٤٥٠٠٠ بيت . وكان ذلك على يد جان ميشيل Jean Miche طبيب أنجيه ، بالرغم من أنه قصر موضوعها على حياة المسيح. و يمكننا أن نقول-على نحوما-إن الأسرار من الأعمال الجماعية: إذ أن كل مؤلف فيها كان يبدأ عمله من حيث تركه سالفه ، ويحاول أن يعلى بناءه . ولـكن هذا العمل نفسه لا يلبث أن يتضاءل فى غمرة الإضافات التى أثرته .وقد وصل إلى مرحلة تمامه على يد جريبان ولذلك يجدر بنا أن ندرسه لديه.وذلك

أن تمثيليته « سر الآلام » تعتبر من الأعمـــال الضخمة التي تركتها لنا العصور الوسطى ، وتستحق أن تجعل فى متناول القراء المعاصرين فى نصها الـكامل . وهى تعتبر قمة فى نوعها ، كما هى الحال بالنسبة للـكاتدرائيات وقصة الوردة ، كما أنها تحمل فى نفسها جراثيم الاضمحلال ، ولـكن إذا كانت العصور الوسطى تنهار فيها ، فإنها تنهار من الإسراف فى الحيوية ، وتجاوز حد الاعتدال .

الإخراج :

لعل أصل ابتـكارات العصور الوسطى فى ميدان المسرح ينحصر فى الإخراج المتصاحب الذى كان يستعمل فى القرن الثانى عشر (اهتداء القديس بولس) وامتد استعماله حتى عهد كورنى . وينحصر هذا الاخراج فى وضع جميع المناظر منذ البداية بعضها بجانب البعض الآخر ،حيث ينتقل الأشخاص من أحدها إلى الآخر تبعا لضرورات التمثيل ، وفى وسعنا أن نأخذ فـكرة عن هذه الطريقة فى بساطتها البدائية من مقدمة القطعة التى لدينا من« البعث »، وها هى ذى كما ترجمهـا الأستاذ سيبيه : « وعلى هذا النحو يجب أن نتلو — البعث المقدس . ولنبدأ بترتيب – كل الأماكن والمساكن :ـــ الصليب أولا : ثم القبر بعد ذلك . ويجب أن تـكون

هناك غرفة سجن « زنزانة » ـ من أجل حبس المساجين وليكن الجحيم من هذه الناحية ـ والمساكن من الناحية الأخرى ـ ثم السماء ، وعلى المقاعد ـ يوجد أولا « بيلاتوس» مع تابعيه ، وسيكون معه ستة فرسان أوسبعة . وعلى الآخر سيكون قيافا ـ ومعه اليهود ،ـ ثم يوسف الرامى ـ وفى الصف الرابع السيد نيقوديموس . وكل من هؤلاء حوله أتباعه . وفى الصف الخامس حواريو المسيح . ولـتكن المـاريات الثلاثة فى الصف السادس . وليعمل على تمثيل الجليل فى وسط المـكان . ولتمثل فيه أيضا عمواس ـ حيث يقاد عيسى إلى المنزل . وحين يصبح الجميع جلوسا ـ و يسود الهدوء كل الأرجاء ـ يحضر السيد يوسف الرامى ـ و يذهب إلى بيلاتوس ـ و يقول له . . »

وفى تمثيلية آدم يوجد ثلاثة أماكن على الأقل : الفردوس الأرضى فى مكان مرتفع، ومحاط بواجهات منتهية بغرف صغيرة ،ومزخرف بأغصان الأزهار ، ثم الأرض حيث يرى آدم وحواء يعملان بعد خطيئتهما ، ثم الجحيم حيث تخرج الشياطين الذين ينتشرون بين المشاهدين . وذلك أن مسرح العصور الوسطى كان يستخدم هو الآخر طريقة إيصال القاعة بالمسرح،

تلك الطريقة الحبيبة إلى نفوس بعض الفنيين المحدثين[1] ، وأخيرا ينبغى ألا ننسى الكنيسة ، حيث كان ينسحب الممثل الذى يمثل الإله حين يغادر المسرح . ويمكننا أن نكون لنا فكرة عن التقدم الذى تحقق فى هذا الميدان إذا قرأنا « كتاب سلوك مدير المسرح - وحساب المصروفات الخاصة بسر الآلام التى مثلت فى مونس Mons سنة ١٥٠١ » . وقد نشره الأستاذ ج . كوهين (شامبيون سنة ١٩٢٥) فهناك سبعون موضعا لمناظر مقامة على تخت طوله أربعون مترا ، ابتداء من عجلة الفردوس - التى يجلس أمامها الإله الأب على عرشه - حتى فوهة الجحيم . وأغلب الظن أن إعجاب الجمهور كان يتجه - بوجه خاص - إلى عجائب الآلية ، وإلى ظهور الملائكة ، وإلى الطوفان ، وإلى البحر الذى تسبح فيه سفينته . ولكن كل هذه الروائع كانت تعلن عن انتهاء نوع : فحين يصبح المسرح بين أيدى الآليين وحدهم يكون عهده قد قارب الإنتهاء ، ولا يبقى إلا انتظار الساعة التى يظهر فيها أحد الشعراء ، وربما لم يكن إلا شاعرا مجهولا مثل مؤلف تمثيلية آدم ، فيبعث فيه الحياة من جديد بوسائل مرتجلة ، وذلك بإيجاد نوع من الائتلاف التام بين النص والإخراج .

---

(١) كذلك يتفق إخراج العصور الوسطى فى رمزيته وتجميد خطوطه مع بعض الاتجاهات فى المسرح المعاصر .

قائمة مختصرة بالمراجع

دراسات :

ج. كوهين G. Cohen :

المسرح فى فرنسا فى العصور الوسطى (المسرح الدينى)

أ. جانروا A; Jeanroy : المسرح الدينى فى فرنسا من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر (مترجمات) .

م. سيبيه M. Sepet : الدرامة الدينية فى العصور الوسطى .

ل. كليدا L. Clédat : المسرح فى فرنسا فى العصور الوسطى .

ل. پتى جوليفيل L. Petit Juleville — الأسرار .

ا. روا E, Roy — أسرار الآلام فى فرنسا من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر .

طبعات :

تمثيلية آدام قام بطبعها :

ك. جراس K. Grass فى Romanische Bibliethek ، مجلد ٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٠٧ .

ب. ستيودير P. Studer ، مانشستر سنة ١٩٠٨.

هـ. شامار H. Chamard ، باريس ١٩٢٥ (مع ترجمة).

معجزة « المرأة التى حفظتها سيدتنا العذراء من الاحتراق » توجد فى المجلد الرابع من طبعة « معجزات السيدة العذراء مع الأشخاص ، عن مخطوطة كانجيه Cangé (جمعية النصوص القديمة ، ١٨٧٦ -- ١٨٨٣ سبعة مجلدات)، قام بنشرها ج . بارى G. Paris و ا. روبير U Robert سر الآلام لارنوجريبان ، قام بنشرها (ج. بارى G. Paris(و ج. رينو G. Raynaud ، باريس سنة ١٨٧٨ .

تمثيلية ادم . . .

تمثيلية آدام التى توجد مخطوطتها الوحيدة فى حوزة مكتبة « تور Tours » يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثانى عشر – ومن المحتمل أن يكون الذى قام بكتابتها شماس نورمندى ، أو إنجليزى نورمندى مجهول الاسم – لكى تمثل خلال أعياد الميلاد فى ميدان الكنيسة الخارجى، وذلك كما يتبين من الملاحظة المكتوبة على المخطوطة باللاتينية حول الديكور ، والملابس ، وطريقة الإيماء Mimique ، بل وحول إلقاء الممثلين . وتشتمل التمثيلية على ثلاثة أجزاء : سقوط آدم وحواء ، ومقتل هابيل على يد قابيل ، وموكب الأنبياء لإعلان قدوم المسيح .

ومن شأن فكرة الخلاص عن طريق التكفير السارية فى أرجاء تمثيلية آدم أن تحقق وحدتها الدرامية .

المنظر الأول

الرمز[1] : يا آدم !

آدم : مولاى !

الرمز : لقد خلقتك من تراب الأرض[2] .

آدم : أعرف ذلك ، يامولاى .

الرمز : لقد صورتك على مثالى ، و برأتك على صورتى ، من تراب. فلا يصح لك ـ فى أية حال ـ أن تجرد على حربا .

آدم : كلا ، لن أفعل ، بل سأومن بك ، سأطيع خالقى .

الرمز : لقد وهبتك صحبة طيبة ! إنها زوجك ، واسمها حواء . إنها زوجك ونظيرك ، و يجب عليك أن تكون وفيا لها ، وعليك أن تحبها ، وعليها أن تحبك ، وستحظيان ـ كلا كما ـ

---

(١) الرمز الألهى .

(٢) « وخلق الرب الإله آدم من تراب الأرض » سفر التكوين إصحاح ٢ ، آية ٧ .

بحبى . عليها أن تخضع لسلطانك ، وعليكما أن تخضعا لإرادتى ، لقد خلقتها من ضلعك ، فهى غير غريبة عنك ، بل منك جبلت . صورتها من جسمك ، فهى خارجة منك، لا من شيء آخر . لا يكن بينكما أى شقاق ، بل لا يكن بينكما إلا الحب العظيم، والمودة العظيمة : هذا هو قانون عشرتكما . (لحواء) وإليك أنت أيضا ، ياحواء ، سأوجه كلامى ، فتدبرى هذا الكلام ، واستفيدى منه : إذا نفذت إرادتى ، حفظت ماتنطوين عليه من طيبة ،أحبى فى خالقك وكرميه ، واعترفى لى بأنى مولاك . وتوفرى على خدمتى بكل مالديك من حماس ،وقوة، وروح . أحبى آدم وحوطيه بحنانك. إنه زوجك ، وأنت زوجه . برهنى لى فى كل وقت أنك لست على استعداد لعصيانه ، اخدميه وأحبيه من كل قلبك . هذا هو قانون الزواج ، فإذا أحسنت معونته ، جعلتك و إياه موضع تكريمى .

حواء : سأسير – يامولاى – تبعا لما يرضيك ، ولن أحاول أن أحيد عن ذلك بأية حال ، سأعترف لك دائما بأنك المولى ، وله بأنه الزوج والسيد ، سأكو[illegible]بة له فى كل حال ، وسيتلقى

منى خير النصائح ، وسأبذل كل مافى وسعى لرضائك ، وخدمتك .

الرمز : (يجعل آدم يقترب منه ويقول له بإصرار أشد من ذى قبل) [1]

انصت يا آدم ، وافهم قولى : لقد خلقتك ، والآن ها هى ذى الهبة التى أهبك أياها : تستطيع – إذا أطعتنى – أن تعيش أبدا ، والا يعتريك المرض أو الخوف ، ولن تعرف الجوع ، أو تشرب عن حاجة إلى الرى . ولن يمسك زمهرير ولاحر ، ستحيا فى سرور ، فلا يصيبك النصب ، وتظل فى نعيم ، فلايمسك الألم . وستتابع حياتك كلها فى الانشراح ، ستدوم إلى الأبد ، ولن يعتريها القصر ، أقول لك ذلك ، وأريدمن حواء أن تسمعه ، فإذا لم تفهمه كانت حمقاء ، لكما الولاية على الأرض كلها ، على طيرها وحيوانها وجميع سكانهـا . ولن يضير كما فى شىء أن تكونا موضعاً للحسد ؛ لأن العالم بأسره سيكون تحت إمرتكما ، وأمامكما سأضع الخير والشر كليهما ، فمنذ الآن زنا كل شىء بغاية الدقة ، ولا تسلكا سبيلا يتنافى والوفاء لى ، دع الشر والزم والخير ، أحبب مولاك ، وابق معه ، ولا تهجر نصيحته من أجل أية نصيحة أخرى ، فإذا

---

(١) هذه الملاحظة – كـكل الملاحظات الأخرى فى تمثيلية آدم – مكتوبة باللاتينية ، ويلاحظ أن المؤلف يعد الأوزان ، تبعا للمواقف والأحاسيس التى يجب أن نثيرها فى السامعين . انظر ص ١٦

فعلت ذلك بعدت عن طريق الخطيئة .

آدم : حمداً جزيلا لك ، أنت يامن خلقتني ووهبتني هذه النعمة الجلى حين وضعت الخير والشر تحت تصرفى .سأكرس إرادتى لخدمتك. أنت مولاى، وأنا مخلوقك. أنت الذى برأتنى وأنا صنيعتك . إن إرادتى لن تعصاك بقدر ما تتحمس لخدمتك .

الرمز : (يشير بيده الى الفردوس) يا آدم !

آدم : مولاى!

الرمز : سأخبرك بمقصودى . انظر إلى هذه الجنة .

آدم : ما اسمها ؟

الرمز : الفردوس .

آدم : إنها رائعة الجمال .

الرمز : أنا الذى غرستها ونسقتها ،ومن سكنها صار حبيبى . وها أنذا أسامها اليك ،لتسكنها وتحتفظ بها . (يجعلهما يدخلان الفردوس قائلا :) ادخلاها[1]

آدم : أنستطيع دخولها؟!

---

(١) المؤلف هنا يعدل نص سفر التكوين الذى يقول : ان حواء خلقت فى الجنة

الرمز : وأن تعيشا فيها أبد الآبدين . وليس لكما أن تخشيا فيها شيئا، وفيها لن تموتا ، ولن يعتريكما المرض .

(الجوقة تغنى الغناء الجماعى) : إذن لقد فعل الله .

الرمز : (يمد ذراعه نحو الفردوس) : سأخبرك بطبيعة هذه الجنة : ليست هناك من متعة تنقصها ، ليس هناك من خير فى هذا العالم إلا يوجد فيها بكل كفاية . وفيها لن تعانى المرأة الأتراح من أجل الرجل ، ولن يعانى الرجل عاراً أو خوفاً من أجل المرأة . ولن يحتاج الرجل لارتكاب الخطيئة من أجل التناسل ، ولن تعانى المرأة الآلام من أجل الوضع. فيها ستحيا أبد الآبدين ، فمناخها جيد جداً ولذا ستظل سنك دائماً على ما هى عليه دون أى تغيير . لن تخشى فيها الموت ؛ لأنه لن يستطيع أن يصيبك ـ فلا تخرج منها ، واجعل منها مقامك .

الجوقة : (تغنى الغناء الجماعى) : « قال الله لآدم » (ثم يقوم الله بتوجيه نظر آدم الى أشجار الجنه ويقول) : تستطيع أن تأكل من جميع هذه الفواكه كما تشاء ، (يوجه نظره الى الشجرة المحرمه وثمرتها.) ،ولكنى أنهاك عن الأكل من هذه

فإنك إن أكلت منها مت من فورك ، وفقدت حبي ،
وأصبحت تعس المصير .

آدم : سأحافظ على وصيتك بحذافيرها ، لن نخالفها فى شيء ،
لا أنا ولا حواء . أمن أجل ثمرة واحدة تضيع كل هذه
السكنى ! إنه من العدل أن يقذف بى إلى الخارج فى
مهب الرياح ؛ إذا أنا تخليت عن حبك من أجل تفاحة.
إن من يجدف و يخون مولاه يجب أن يطبق عليه قانون
الخونة . (الرب يذهب نحو الكنيسة . آدم وحواء
يتنزهان فى الفردوس و يتسليان تسلية بريئة).

المنظر الثانى

(فى هذه الأثناء تنتشر الشياطين فى أرجاء المكان بحركات وإشارات مناسبة - وتقترب بالتتابع من الفردوس وهى تلفت نظر حواء إلى الفاكهة المحرمة ، كما لو كانت تريد إغراءها بالأكل منها . وأخيرا يذهب إبليس إلى آدم .)

إبليس : ماذا تفعل يا آدم ؟

آدم : أعيش هنا فى بهجة شاملة .

إبليس : أأنت بخير ؟

آدم : لا أحس أن شيئا يضايقنى .

إبليس : يمكن للمرء أن يكون أحسن حالا .

آدم : لا أدرى كيف يمكن ذلك .

إبليس : أتريد أن تعرف ؟

آدم : لن تجعلنى هذه المعرفة خيرا مما أنا الآن .

إبليس : إنى أعرف كيف .

آدم : وماذا يعنينى من ذلك ؟

إبليس : ولم لا ؟

آدم : هذا لن ينفعنى فى شىء .

إبليس : بل سينفعك .

آدم : لا أدرى متى .

إبليس : لن أقول لك ذلك بصورة عابرة .

آدم : قله لى الآن .

إبليس : كلا ، إلا بعد أن تكل من كثرة رجائى .

آدم : لست فى حاجة إلى معرفته .

إبليس : حقا إنك لن تستطيع أن تنال من كل ذلك أية فائدة : وأنت لا تعرف كيف تستمتع بالخير الذى فى حوزتك .

آدم : كيف ذلك ؟

إبليس : أتريد أن تعرف كيف ؟ سأخبرك فيما بينى و بينك .

آدم : فليكن .

إبليس : أنصت يا آدم ، أعرنى سمعك .

آدم : كلى آذان صاغية .

إبليس : أتصدقنى ؟

آدم : نعم ، بكل تأكيد .

إبليس : فى كل ما أقوله ؟

آدم : إلا فى شىء واحد .

إبليس : وما هذا الشىء ؟

آدم : سأخبرك به : ذلك أنى لن أغضب خالقى .

إبليس : أتخافه إلى هذا الحد ؟

آدم : نعم ، الحقيقة أنى أحبه ، وأخافه .

إبليس : ليس هذا من الحكمة ؛ ماذا فى مقدوره أن يفعل ؟

آدم : كل الخير والشر .

إبليس : لقد أصبحت مجنونا منذ اليوم الذى اعتقدت فيه أنه يمكن للشر أن يصيبك ، ألست غارقا فى المجد ؟ إنك منزه عن الموت .

آدم : لقد أخبرنى الرب بأننى سأموت إذا خالفت وصيته .

إبليس : وما هى هذه المخالفة الكبيرة ؟ إنى أريد أن أعرفها دون أى تأخير .

آدم : سأخبرك بها بكل صراحة : لقد أدلى إلى بوصية ، وهى : أنى أستطيع الأكل من جميع فواكه الجنة ، ماعدا واحدة فقط ، فقد نهانى عن الأكل منها ، ولن أمسها بيدى .

إبليس : وأى فاكهة تلك ؟

آدم : (يرفع يده ويشير بها الى الفاكهة المحرمة) أتراها ؟ إنها هى التى نهانى عنها نهيا قاطعا .

إبليس : أتدرى لماذا ؟

آدم : أنا ؟ كلا ، بكل تأكيد .

إبليس : سأخبرك بالسبب : إن الفواكه الأخرى لا تعنيه فى شىء ، أما هذه التى تتدلى من أعلى — (مشيرا بيده الى الفاكهه المحرمة) — فإنها شىء آخر ، إنها شجرة المعرفة التى تؤدى إلى معرفة كل شىء . فإذا أكلت منها ، فعلت خيرا .

آدم : أنا ؟ وأى خير ؟

إبليس : سترى ذلك ، سيرتفع الغطاء عن عينيك فى الحال ، وسينكشف لك كل ما هو كائن ، وسيصبح فى مقدورك أن تفعل كل ما تريد ، فهذا خير جزيل تستحوذ عليه . كل منها تنل خيرا ، ولن تعود فى حاجة إلى خوف ربك فى شىء ، بل ستصبح ندا له فى كل شىء[1] . وهذا هو السبب الذى دفعه إلى تحريمها عليك ، أتصدقنى ؟ ذق هذه الفاكهة .

---

(١) انظر سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الآيتين ٤ ، ٥

آدم : لن أفعل ذلك .

إبليس : يالها من مهزلة ! لن تفعل ذلك ؟

آدم : كلا .

إبليس : إذن فأنت معتوه ! وسيأتى يوم تتذكر فيه ما أقوله لك .

(الشيطان ينسحب ، ويذهب الى الشياطين الأخرى ، وبعد أن يجول قليلا فى المكان يرجع الى إغراء آدم ، والبشر والمرح يبدوان عليه)

إبليس : ماذا تفعل ، يا آدم ؟ ألن تغير رأيك ؟ ألا تزال غارقا فى أفكارك الحمقاء ؟ أظن أنى قلت لك ذات يوم : إن الله قد جعلك هنا عالة عليه ، وأنه لم يضعك هنا إلا لتأكل هذه الفاكهة ، أليست لك إذن أية متعة أخرى ؟

آدم : نعم بكل تأكيد ، لا شىء ينقصنى .

إبليس : لن تصعد أبدا إلى أعلى مما أنت ؟ أتعتبر أسمى المكارم أن يكون الرب قد جعلك بستانيه ؟ إن الرب قد جعلك حارسا لجنته . ألن تبحث لنفسك قط عن وظيفة أخرى ؟ أهو لم يخلقك إلا لكى تملأ كرشك ؟ ألا يريد أن يسمو بك إلى مكانة أخرى ؟ أنصت ، يا آدم ، استمع إلى : إذا أصغيت إلى نصيحتى التى يحق لك أن تثق فيها ، استطعت أن تصبح بلا مولى ، وأن تصير ندا للخالق . بل سأقول لك

الحقيقة فى أخصر عبارة : إنك إن أكلت التفاحة (يمد يده نحو الجنة)أصبحت لك السيادة، واستطعت أن تقتسم السلطان مع الرب .

آدم : اخرج من هنا .

إبليس : ماذا يقول آدم ؟

آدم : اخرج من هنا. إنك الشيطان، ولست تقدم إلا النصائح الكاذبة.

إبليس : أنا ؟ كيف ذلك ؟

آدم . إنك تريد أن تسلمنى إلى الفناء ، وأن تسىء ما بينى و بين مولاى، وأن تحرمنى من السرور ، وأن تلقى بى فى بحر من الشقاء . اخرج من هنا ولا يكن لك من الصفاقة ما يدفعك إلى العودة أمامى مرة أخرى ! إنك خائن عديم الإيمان .

(يبتعد إبليس عن آدم حزينا مطأطىء الرأس ، ويذهب حتى أبواب الجحيم حيث يتناقش مع الشياطين الأخرى ، ثم يجول بين الناس ، وأخيرا يقترب من الفردوس من ناحية حواء التى يخاطبها فى مرح وحنان) .

المنظر الثالث [1]

إبليس : لقد حضرت هنا من أجل أن أكلمك ، ياحواء .

حواء : قل لى ، أيها الشيطان ، ماذا تريد ؟

إبليس : إنى أسعى إلى مصلحتك ، وإلى سعادتك .

حواء : ليمنحنا الرب إياها .

إبليس : لاتخافى ، فإنى أعرف أسرار الفردوس منذ زمن طويل .
وأريد أن أقص عليك طرفا منها .

حواء : ابدأ ، إذن ، فإنى مصغية إليك .

إبليس : أستصغين إلى ؟

حواء : نعم ، ولن أغضب فى شىء .

إبليس : هل ستكتمين السر ؟

حواء : نعم ، أقسم لك .

إبليس : وإذا أذيع ؟

حواء : لن يكون ذلك على يدى .

(١) هذا المنظر مستوحى من التكوين ٣ ، ١ ـ ٥

إبليس : سأثق فيك ، ولن أطلب منك أى ضمان .

حواء : فى وسعك أن تثق فى كلمتى .

إبليس : إنك سريعة الفهم ، فقد رأيت آدم ، ولكنه أظهر حمقا شديدا .

حواء : إنه شديد المراس بعض الشىء .

إبليس : سيلين . إنه أشد مراسا من الجحيم .

حواء : إنه جد صريح .

إبليس : كلا ، بل شديد الخضوع . فإذا كان لا يريد أن يبالى بنفسه فليبال بك على الأقل . إنك مخلوقة ضعيفة مفعمة بالحنان والمودة ، ووجهك أنضر من وجه الوردة ، إنك أنصع بياضا من البلور والثلج الذى يتساقط فوق جليد الوادى ، وقد جمع الخالق بينكما وأنتما جد متنافرين : فأنت شديدة الحنان ، وهو شديد القسوة ، ومع ذلك فأنت أحكم منه ؛ لأنك تخضعين قلبك لعقلك؛ لذلك يسر المرء أن يوجه إليك حديثه. إنى أريد أن أتكلم معك .

حواء : تستطيع أن تثق بى .

إبليس : أريد ألا يعرف أحد ذلك .

حواء : ومن الذى يهمه أن يعرفه ؟

إبليس : حتى ولا آدم .

حواء : كلا ، أقسم لك .

إبليس : إذن سأوضح لك الأمر ، فأنصتى إلى . ليس الآن فى هذا المكان سوانا نحن الإثنين ، أما آدم فهناك ، ولن يستطيع أن يسمعنا .

حواء : ارفع صوتك ، فلن يسمعنا ، مهما تكلمت عاليا .

إبليس : إنى أحذرك من شرك نصب لك فى هذه الجنة ؛ ذلك أن الفاكهة التى أباحها لكما الرب ليست جيدة ، أما تلك التى حرمها عليكما بكل صرامة ، فإنها ذات مزية جلى : ففيها نعيم الحياة ، وفيها القوة والسيادة ، وفيها المعرفة الشاملة ، وفيها الخير والشر .

حواء : ما نكهتها ؟

إبليس : من السماء ، ولا شك أن المصير الذى يليق بجمال جسمك ووجهك ، ليس أقل من أن تكونى ملكة العالم ،ملكة الجنة والنار ، وأن تعرفى كل ما هو موجود ، وأن تكونى سيدة الجميع .

حواء : أهذه الفاكهة على نحو ما تقول ؟

إبليس : نعم ، حقيقة .

حواء : (بعد أن تتأمل الفاكهة المحرمة وقتاً طويلا) : إن مجـرد رؤيتها يفعمني بالراحة .

إبليس : فكيف يكون الحال لو أكلت منها ؟

حواء : ما يدريني ؟

إبليس : ألا تصدقينني ؟ خذيها أولا ، وناوليها آدم ، وفى الحال سينزل عليكما تاج من السماء ، وتصبحان ندين للخالق . ولن يستطيع أن يخفى عليكما مقاصده ، لن تكادا تذوقان الفاكهة حتى يتغير قلبكما . ستصحبان ـ بلا أدنى شك ـ مساويين للرب فى الطيبة، وفى القدرة . فذوقى هذه الفاكهة .

حواء : ما أشد شوقى لأكلها ؟

إبليس : لا تصدقى آدم .

حواء : سأذوقها فيما بعد .

إبليس : متى ؟

حواء : أنتظر حتى ينام آدم

إبليس : كليها ، لا تخافى ، فإن الانتظار ضرب من الصبيانية .

(يبتعد الشيطان عن حواء ، ويعود الى الجحيم . آدم يقترب منها ، وقد بدا عليه الامتعاض من تبادلها الحديث مع إبليس) .

المنظر الرابع

آدم : أخبريني ، أيتها المرأة ، ماذا طلب منك هذا الشيطان اللعين ؟ ماذا أراد منك ؟

حواء : كان يكلمني عن شرفنا .

آدم : لا تصدقي هذا الخائن ... نعم ، إنه خائن .

حواء : أعرف ذلك جيدا .

آدم : أنت ؟ كيف عرفته ؟

حواء : قلت لك : إني أعرف ذلك ، فماذا يهم معرفة الطريق الذي وصلت به ؟

آدم : سيحملك على تغيير رأيك .

حواء : كلا ؛ لأني لن أصدق شيئا يقوله قبل أن أختبره .

آدم : لا تدعيه يقترب منك منذ الآن ، لأنه سيء النية إلى أقصى حد ، فقد سبق له أن أراد خيانة مولاه والسمو عليه . مثل هذا الشقي الذي لم يتورع عن ذلك السلوك ، لا أريد أن يحظى منك بحسن استقبال .

(حية جيدة المحاكاة تصعد على جذع الشجرة المحرمة ، حواء تقرب منها أذنها كما لو كانت تريد أن تنصت لنصيحتها • ثم تقتطف التفاحة ، وتقدمها لآدم ولكنه يرفضها)(1)

---

(1) انظر سفر التكوين ٣ ، ٦

حواء : ـ كل ، يا آدم ، إنك تجهل كنهها ، فلتأخذ هذا الخير الذى صادفنا .

آدم : ـ أهى طيبة ؟

حواء : ـ ستعرف ذلك ... لن تستطيع معرفته دون أن تذوقها .

آدم : ـ إنى أخافها .

حواء : ـ دع عنك هذا !

آدم : ـ لن آكل منها .

حواء : ـ إن ترددك يدل على حماقتك .

آدم : ـ إذن ، سآخذها .

حواء : ـ كل منها ؛ فتعرف الخير والشر ، وسأبدأ أنا بالأكل منها .

آدم : ـ وأنا بعدك .

حواء : ـ إنها لاخطر منها (تأكل جزءا من التفاحة ... لآدم) لقد ذقتها : الله ! ما أطيبها ؟ لا أعتقد أنى ذقت شيئاً أطيب منها . يالطيب مذاق هذه التفاحة !

آدم : مامذاقها ؟

حواء : لم يتأت لإنسان أن ذاق مثلها . الآن انكشف الغطاء

عن عيني حتى أصبحت أشبه الرب القدير . صرت أعرف كل ما كان ،وكل ما لابد أن يكون ، وأنا الآن أسيطر على كل شيء . فكل ، يا آدم ، لاتتردد ، خذ هذه التفاحة ، إن ذلك من أجل سعادتك .

آدم : (يأخذ التفاحة من يد حواء) : سأصدق ماتقولين ؛ فما أنت إلا نصف مني .

حواء : كل ، فليس هناك ماتخشاه .

(آدم يأكل جزءا من التفاحة ، وفي الحال يعرف خطيئته ، فيطأطيء بصورة تجعل الجمهور لايراه ، وينزع عنه ملابس العيد ، ويرتدي ملابس زريه مصنوعة من ورق شجرة التين[1] ، ثم يبدأ في الانتحاب وقد بدا على وجهه أشد أنواع الألم) ؟

آدم : وامصيبتاه ! ماذا ارتكبت ، أنا ، أيها الآثم ؟ لقد مت الآن ، وانتهى الأمر ، لقد مت دون رجعة ، مادمت قد هويت من علياء وضعي ! لقد تغير مصيري ، ويا لسوء ماتغير ! كان من قبل مصيراً سعيداً ، وها هو ذا الآن غاية في القسوة . هجرت خالقي اتباعا لنصيحة امرأة سيئة . وامصيبتاه ! ماذا ارتكبت ، أنا ، أيها الآثم؟ كيف لي أن

---

(١) انظر سفر التكوين ٣ ، ٧

أعول على خالقى الذى هجرته بحماقتى ؟ لم يسبق لى قبل أن أعقد صفقة فى مثل هذا الخسران . الآن عرفت معنى الخطيئة . آه ! أيها الموت ، لماذا تتركنى على قيد الحياة ؟! لماذا لم يتخلص منى العالم ؟ لابد لى أن أهوى إلى قاع الجحيم . فى الجحيم سيكون مقرى حتى يأتى من يخلصنى ، فى الجحيم ستكون حياتى . وأنى لى — هناك — بمن يأتى لنجدتى ؟ أنى لى — هناك — بمن يخف لإنقاذى ؟! من ذا الذى سيخلصنى من مثل هذا العذاب ؟ لماذا أرانى سلكت هذا السلوك المشين تجاه مولاى ؟ لقد ضعت دون رجعة ، لقد بلغ سلوكى تجاه ربى درجة من السوء تجعلنى عاجزاً عن الدفاع عن نفسى أمامه ؛ لأنى على خطأ وهو على حق . أيها الرب ، ما أبشع قضيتى[٢] ! من ذا الذى سيتذكرنى بعد اليوم ؟ إننى مذنب لاعذر له ؛ لأنى أذنبت فى حق ملك المجد ، فى حق ملك السماء . ليس لى صديق ولا جار يستطيع أن يخلصنى مما

---

(١) هنا نرى آدم — بالرغم من يأسه — يواجه كارثته مواجهة رجل القانون . والحقيقة أن الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى كثيرا ما يلبس المسائل الخلقية لباس المسائل القانونية ؛ فآدم هنا يعبر عن أمله فى الخلاص ، ولكنه لا يوجه كلمة استعطاف واحدة للرب .

أنا فيه . من ذا الذى أسأله العون ، إذا كانت زوجتى قد خدعتنى ، زوجتى التى منحنى الرب إياها لتكون نصفى ؟ لقد وجهت إلى مشورة سيئة : آه ، ياحواء ! (ينظر إلى حواء زوجته ، قائلا :) . آه أيتها المرأة الحمقاء ، إنك لم تولدى منى إلا من أجل شقائى ، ياليته كان قد حرق ذلك الضلع الذى قادنى إلى هذا الوضع السيء ! ألاليت النار كانت قد أبادت ذلك الضلع الذى ألقى بى فى هذا الإضطراب الشامل ! لماذا لم يحرق الرب هذا الضلع حين أخذه منى ؟ لماذا لم يقتلنى ؟ إن الضلع قد خان الجسم كله ، وأصابه بالجنون ، ووضعه فى أسوأ حال . لم أعد أدرى ما أقول أو أفعل . فإذا لم تتداركنى نجدة من السماء ، فلن أتخلص من هذا العذاب . هذا هو الداء الذى يعذبنى . آه ، ياحواء ، لقد كان من سوء حظى أن جاء اليوم الذى أصبحت فيه زوجتى : ياله من عذاب أليم انقض على فى تلك اللحظة ! الآن أصبحت ضائعاً بفضل مشورتك ، و بفضل مشورتك ترديت فى الشر ، وهويت من أعلى مكان ، ولن يستطيع إنسان حى أن يخلصنى مما أنا فيه مالم يتدخل إله الجلال .

ماذا أقول؟ واأسفاه!! لماذا ذكرت اسمه ؟ أتراه سيساعدنى؟ لقد أثرت غضبه . لن يستطيع أحد أن يقدم لى يد العون إلا الابن الذى سيخرج من أحشاء مريم . لا أدرى ماذا سيحل بنا بعد أن فقدنا إيماننا بالله ، والآن ليكن مايريد الله أن يكون ، فليس لى إلا أن أموت .

المنظر الخامس

(الجوقه تغنى الآيه Lumdiam bularet وبعد النشيد يقبل الرب حاملا يطرشيلا[1] ètole . ويدخل الفردوس وهو يتلفت فيما حوله باحثا عن آدم . ولكن آدم وحواء يختبئان فى ركن من الفردوس مظهرين أنهما يعرفان سوء حالهما)

الرمز : آدم ، أين أنت ، يا آدم ؟

(ينهضان كلاهما واقفين أمام الرب ، ولكنهما لا يقفان مستقيمين ، بل منحنيين أمام عار الخطيئة ، وقد بدا عليهما الحزن الشديد)

آدم : إنى هنا أيها المولى الجميل . لقد اختبأت بسبب غضبك ، وجثمت هنا لأنى عار كل العرى .

الرمز : ماذا فعلت ؟ كيف تأتى لك أن تحيد عن الطريق المستقيم ؟ من الذى انتزعك من حالتك السعيدة ؟ ماذا فعلت ؟ لماذا يعتريك العار ؟

---

(١) حلية طقوسية تتكون من شريط من النسيج يحمل ثلاثة صلبان و ينزل من العنق حتى القدمين . وفى بداية التمثيلية يظهر الرمز الإلهى مرتديا عباءة ملاسية طويلة ذات كمين واسعين ؛ وكان يلبس هذه العباءة فى بادىء الأمر الشمامسة ، وبعد ذلك لبسها القس المطارنة . أما « البطرشيل » فشعار القضاء ، ولذلك لا يظهر الرمز الإلهى هذه المرة باعتباره خالقا ، كما كان الحال من قبل ، بل باعتباره قاضيا » . (هـ . شاتار H. Chanard ، « سر آدم » ، ص ٧١ ، هامش ٢) .

آدم : كيف يجوز لى أن أدخل معك فى سؤال وجواب ؟

الرمز : لم تكن ، خلال اليوم السابق ، تنطوى على شىء يشعرك بالعار ،والآن أراك حزينا كئيبا ، ومن تكون هذه حاله لا بد أن يكون قلق الضمير .

آدم : لقدبلغ شعورى بالعار أمامك ، يامولاى ، حداجعلنى أختبىء

الرمز : ولماذا ؟

آدم : هناك عار كبير يلطخنى ،فلايجعلنى أجرؤ على النظرفى وجهك.

الرمز : لماذا لم تطع أمرى ؟ أعاد عليك ذلك بالربح ؟ أنت عبدى وأنا مولاك .

آدم : لاأستطيع أن أقول لك عكس ذلك .

الرمز : لقد برأتك على مثالى : فلماذ اخالفت وصيتى ؟ لقدصورتك على صورتى بكل دقة ، وكان جزائى منك أن سببت لى كل هذه الإهانة .إنك لم تراع نهيى ، وخالفته عامدا . لقد أكلت الفاكهة التى نهيتك عنها بكل صراحة ، واعتقدت أنك بذلك أصبحت نداً لى! فهل تريد – ياترى – أن تكون جفاخا مضحكا ؟

آدم : (يمد يده نحو الرب ، ثم نحو حواء) : إن المرأة التى منحتنى

إياها هى أول من ارتكب هذه المعصية . فهى التى ناولتنى
الفاكهة ، فأكلتها . والآن أرى أنى فعلت ذلك لشقائى :
لقد أخطأت حين أكلت منها : أسأت التصرف بسبب
زوجتى[1] .

الرمز : لقد صدقت زوجتك أكثرمما صدقتنى ، وأكلت الفاكهة
دون إذنى . والآن هاهو ذا الثمن : ملعونة الأرض التى تبغى
أن تبذر فيها قمحك ، إنها لن تحمل ثمارا من أجلك . إنها
ستكون ملعونة تحت يدك ، ومن العبث أن تحاول استثمارها .
من أجلك ستصبح عقيماً ، ولن تنتج غير الشوك والحسك ،
وستصبح بذورك ملعونة تحت الحكم الذى قضى به عليك ، ولذا
سيعتريها الفساد بالكدر والنصب ستأكل خبزك ، و بعرق
جبينك طوال الليل والنهار ستعيش[2] . (يلتفت إلى حواء وعليه
سيما التهديد) : وأنت ، ياحواء ، أيتها المرأة السيئة ،
لقد أعلنت على الحرب ، ولم تراع وصاياى .

حواء : الحية الملعونة هى التى خدعتنى[3] .

---

(١) انظر التكوين ٣ ، ١٢ .
(٢) انظر التكوين ٣ ، ١٧ – ١٩
(٣) انظر التكوين ٣ ، ١٣

الرمز : بسببها اعتقـــدت أنك ستصبحين نداً لى ؟ والآن أتستطيعين أن تخمنى ؟ فيما مضى كانت لـكما السيادة على كل ما تدب فيه الحياة ، فـكيف فقدتها بهذه السرعة؟ ها أنت ذى حزينة خجلة . أترين أنك رابحة أم خاسرة سأجازيك بمـا أنت أهل له ، وسأدفع إليك الثمن الذي يستحقه عملك .

ستنقض عليك المصائب من كل جانب . ستحملين أولادك كرها[1] ، وستلدينهم كرها ، وسيقضون كل حياتهم غارقين فى بحر من القلق . هذه هى الآلام ، هذا هو الخراب الذى ألقيت بنفسك فيه ، أنت وذريتك. وكل من سينحدرون منك سيبكون على خطيئتك .

حواء : لقد أتيت عملا سيئاً ! وكان ذلك فى لحظة جنـون . فمن أجل تفاحة سأعانى كل هذا الضرر الذى سيغمرنى بالألم ، أنا وذريتى : فائدة صغيرة تكبدنى عقاباً كبيراً . وإذا كنت قد أذنبت ، فلم يكن ذلك من غرائب الأمور ؛ لأن الحية الملعونة هى التى خدعتنى . فهى خبيرة فى ميدان الشر ولا تمت إلى النصيحة بشبه . ومن الخطل أن يتخذ المرء منها نصيحة

(١) انظر التكوين ٣ : ١٦

لقد أخذت التفاحة . والآن أعلم أني ارتكبت حماقة؛ لأنك
كنت قد حرمتها ، ومن ثم أعترف بأني قد اقترفت خيانة!
لقد أخطأت حينما ذقتها ، وها أنذى موضع لبغضك، فمن أجل
ثمرة ضئيلة لا أرى لى محيصاً من فقدان الحياة .

الرمز : (مهددا الحيه) وأنت أيتها الحية ، كونى ملعونة !
سأسترجع منك حقوقى . ستزحفين على بطنك ما دمت على
قيد الحياة . ولن تأكلى غير التراب ، سواء أكنت فى الغابة
أم فى السهل أم فى البرية . وستقوم البغضاء بينك و بين
المرأة حيث ستظل عدوة لك إلى الأبد . ستسعين إلى لدغ
عقبها ، وستقوم هى بنزع حمتك . وتسحق رأسك بمطرقة
ثقيلة تسبب لك أقصى أنواع العذاب [1] . وستحرص أيضاً
على الانتقام منك . لقد أخطأت حين دبرت خيانتها ؛ فإنها
سترغمك على إحناء رأسك . وسيأتى يوم يخرج فيه من بين
أحشائها سليل يكشف عن ضروب نفاقك كلها .
(ثم يطردهم الرب من الجنة قائلا :) والآن، اخرجوا من الجنة؛

---

(١) هذه الفقرة مستوحاة من سفر التكوين ٣ ، ١٤ — ١٥ .

فقد استبدلتم بها دار إقامة سيئة . على الأرض ستشيدون بيوتكم[1]، ولم يصبح لكم أى حق فى الجنة ، وليس لكم أن تطالبوا بشيء فيها . ستخرجون منها دون عون . ليس لكم فيها أى حق . فاتخذوا لكم فى غيرها مقراً . وبخروجكم منها ستتخلى عنكم السعادة . ومنذ الآن ستعرفون الجوع والتعب ، ستعرفون العذاب والألم خلال أيام الأسبوع جميعاً. وستكون إقامتكم فوق الأرض إقامة سيئة ، ثم تموتون فى نهاية الأمر ، ولا تكادون تذوقون الموت حتى تذهبوا إلى الجحيم من فوركم . ستكون الأرض مأوى أجسامكم ، أما أرواحكم ،فإلى الجحيم مأواها حيث يقف الهلاك لها بالمرصاد . وستصبحون تحت سلطان الشيطان ، ولن يكون فى مقدور أحد أن يحفظكم منه ، لن يستطيع أحد أن يكون لكم عوناً إذا أنا لم تأخذنى بكم شفقة[2] (الجوقة تغنى الآية Jmsudore vultus tui) وحيئذ يأتى الملاك مرتديا لباساً أبيض وممسكا بيده سيفاً متوهجاً .

---

(١) انظر سفر التكوين ٣ ، ٢٣

(٢) إشارة خفية إلى الفداء المقبل .

(الرب يوقفه على باب الفردوس ويقول له :)

الرمز : احرس لى الفردوس جيداً . واحذر أن تدخلها هذه الذرية الطالحة . واحرص على ألا يحصل على القدرة أو الإذن بمس فاكهة الحياة بل سد عليه الطريق بهذا السيف المتوهج .

(وحين يخرج آدم وحواء من الجنة يظلان منحنيين مطأطئي رأسيهما حتى يمسا الأرض ، ويبدو عليهما الحزن والخجل . الرب يشير إليهما بيده وقد أدار عنهما وجهه نحو الفردوس ، فى حين تترنم الجوقة بالآية quasi Unus وبعد النشيد يرجع الرب نحو الكنيسة)

المنظر السادس

(يرى آدم و بيده الفأس ، وحواء ومعها المجرفة وقد بدآ يفلحان الأرض ،و يبذران فيها القمح. ثم يذهبان لانتحاء مكان يجلسان فيه قليلا من فرط التعب فى العمل ، ويريان من حين لحين يرفعان بصريهما نحو الجنة وهما يبكيان ،ويضربان بأيديهما على صدريهما . وفى هذه الأثناء يقبل الشيطان ويغرس الشوك والحسك فى ارضهما ، ثم يذهب . آدم وحواء يرجعان ، ولا يكادان يريان الشوك والحسك حتى يتملكهما الهم الشديد ،ويأخذان فى قرع صدريهما وفخذيهما بحركات وإشارات تدل على الألم ، ويبدأ آدم فى الانتحاب) :

آدم : وا أسفاه ! ماأضعفنى أمام شقوتى التى رأيتها منذ اليوم الذى انقضت فيه خطيئاتى على ، لأنى هجرت مولاى المعبـود .

من ذا الذى يستطيع أن يخف لنجدتى ؟ (ينظر الى الفردوس ويداه ممدودتان — نحوها ، وقد طأطأ رأسه فى خضوع ويتابع نحيبه)

أيها الفردوس ، أيها المقام الجميل ، ياحديقة المجد ، ما أجمل النظر إليك ! الحقيقة أنى طردت منها بسبب خطيئتى ، وقد فقدت كل أمل فى العودة إليهـا . كنت فيهـا ، ولم أكد

أستمتع بها ، صدقت المشورة التى لم تلبث أن أدت إلى طردى، والآن أرانى نادماً ، و يحق لى أن أحزن عليها ،ولكن فات الأوان ،ولم يصبح فى مقدور لهفاتى أن تفعل شيئاً . أين كانت بصيرتى ؟ أين كان عقلى حين هجرت ملك المجدمن أجل إبليس ؟ ها أنذا الآن أتألم ، ولكن دون جدوى .إن خطيئتى ستسجل فى التاريخ . (يمد يده نحو حواء التى تقف وحدها أعلى منه قليلا ، ويهز رأسه فى حنق شديد) . آه ! أيتها المرأة السيئة المفعمة بالخيانة ! لقد سارعت بدفعى إلى حتفى حين عملت على فقدان بصيرتى وعقلى .إنى نادم على ما كان، وليس لى أن أطمع فى أى غفران . ياحواء التعسة ! ما كان أسرعك إلى الشر حين عجلت بتصديق نصيحة التنين ! بخطيئتك أصبحت فى عداد الأموات . . . نعم ، لقد فقدت الحياة . أما خطيئتك فستسطر فى الكتاب .أترين الأشراط الدالة على الانقلاب الهائل ؟ لقد حلت بالأرض لعنتنا. بذرنا قمحاً فأنتج لنا حسكا . انظرى إلى بداية عقابنا : إنه ألم هائل بالنسبة لنا ، ولكن الألم الذى ينتظرنا أشد منه هولا . فسنساق إلى الجحيم، واعلمى أننا هناك لن نعدم الألم، ولا

العذاب . فماذا ترين ، ياحواء المسكينة ؟ هذا هو ربحك ، هذا هو المهر الذى قـدم لك ! لن تستطيعى أبداً أن تجلبى للرجل خيراً ، بل ستكونين دائماً للعقل عدواً .وكل أولئك الذين سيخرجون من أصلابنا سيعانون جزاء جرمك . لقد أخطأت ،وسيحكم عليك هؤلاء جميعاً . أما الذى سيرد إليك اعتبارك ، فلن يأتى إلا بعد زمن طويل .

حواء : يا آدم، أيها السيد الجميل، لقد أطلت فى لومى، ذكرتنى رذيلتى وعنفتنى عليها، فإنى إذا كنت قد أذنبت ، فإنى أعانى عقاب ذنبى . إنى مدينة ، والله هو الذى سيحاسبنى . لقد أجرمت أفدح الجرم فى حق الله ، وفى حقك . وذكرى جرمى ستظل حية زمناطويلا. إن خطئى لشديد ، وإنى لأكره خطيئتى. إنى شقية ، محرومة من كل خير . وليس لى أن أطلب من الله حمايتى ، وأنا الآثمة الكبيرة . فاغفرلى ؛ لأنى لاأستطيع التكفير . ولو كان فى مقدورى أن أكفر لقدمت قربانا . آه ، أيتها الآثمة ! آه ، أيتها التعسة ! آه أيتها الضعيفة ! إن خطيئتى تملؤنى بالخوف من الله ، فخذنى ، إذن ، أيها الموت ، ولا تتركنى للحياة . ها أنذى فى خطر ، ولن أستطيع

الوصول إلى بر النجساة . إن الحية الخائنة ، إن التنين الملعون قد أغرانى بأكل تفاحة التعاسة . فقدمتهالك ، وأنا أعتقد أنى أفعل الخير ، فسقتك إلى خطيئة لاأعرف كيف أخلصك منها ! لماذا لم أطع أمر الخالق ؟ لماذا ، يامولاى ، لم أحافظ على تعاليمك ؟ لقد أخطأت يا آدم ، ولكنى أنا أصل دائنا الذى لا يبدو شفاؤه قريبا . إن جريمتى ، إن مغامرتى المشئومة ستكلف أولادنا ثمنا غاليا . كانت الفاكهة حلوة المذاق ، ولكن العقاب شديد ! ولقد أكلناها من أجل شقائنا ، ، وسيدوم عقابنا . ومع ذلك ، فإن لى أملا فى الله، وسينتهى بأن يغفرلى هذه الغلطة . سيرد الإله إلى فضله وقربه من جديد ، وسينقذنا من الجحيم بقدرته .

(يدخل الإله ومعه ثلاثة شياطين أو أربعة تحمل فى أيديها سلاسل وقيوداً فتضعها حول عنق آدم وحواء . ويأخذ البعض فى دفعهما إلى الجحيم ، والبعض الآخر فى جرهما وتقابلهما شياطين أخرى ، ترقص مظهرة بذلك سرورها لخسرانهما . وحين تراهما طائفة أخرى من الشياطين ، تشير إليهما بالأصابع وتلقى القبض عليهما ، وتقذيهما فى الجحيم . يتصاعد دخان

كثيف مع صيحات مرح وأزيز مراجل ، وقدور تقرع
فيما بينها . . وبعد لحظات تخرج الشياطين ، وتعدو
فى كل اتجاه من المكان ، فيما عدا بعضها التى تبقى
فى الجحيم)

المنظر السابع

(يدخل قابيل وهابيل . قابيل يرتدى ملابس حمراء ،
أما ملابس هابيل فبيضاء . يفلحان الأرض التى تم تحضيرها .
ثم يبدأ هابيل ــ الذى يأخذ لنفسه شيئاً من الراحة ــ فى
توجيه الكلام إلى أخيه بصوت عذب ودود) .

هابيل : ياقابيل ، إننا أخوان ، ابنا أول رجل ، وهو آدم . وحواء اسم
أمنا ، فلايصح لنا أن نسلك سلوك الأخساء فى خدمة الرب ،
ولنخضع دائما للخالق ، ولنخدمه بصورة تجلب لنا حبه الذى
فقده أبوانا بحمقهما ، وليحب كلانا الآخر حباً ثابتاً قوياً ،
ولنتفان فى خدمة الله خدمة تجلب له السرور ، ولنؤد إليه
حقه دون تحفظ ، فإذا عملنا على طاعته من كل قلبينا ،
لم يكن لروحينا أن تخشيا الهلاك ، ولنؤد إليه زكاته [1]

---

(١) الكلمة « عشرة » وهى من مصطلحات الكتاب المقدس كما أنها من مصطلحات عهد الإقطاع حيث كان يقدم عشر المحصول والماشية زكاة لله ، فيعطى للاويين لدى اليهود ، وللكنيسة ، أو للسيد الإقطاعى فى أوربا الإقطاعية .

وجميع حقوقه ، من حاصلات وقرابين وعطايا وضحايا ، فإننا
إذا استسلمنا لإغراء منعها ، كان جزاؤنا الخسران فى الجحيم
دون رجعة ، ولتكن علاقة ما بيننا قائمة على التعاطف
العظيم دون حسد ودون انتقاص ، فلماذا يثور الخلاف
بيننا ، وهذه الأرض كلها فى متناول أيدينا ؟

قابيل : (ناظرا إليه بسيما السخرية) أخى الجميل هابيل . إنك تعرف
كيف تجيد الوعظ، وتروض عقلك، وتعرض ثمرات فكرك ،
ولكن من يصغى إلى دروسك لا يبقى لديه ـ بعد بضعة أيام ـ
إلا القليل مما يستطيع إعطاءه ، وأنا لم أرحب قط بإيتاء الزكاة ،
وفى وسعك أن تجزل عطاءك من ملكك الخاص . أما مالى
فإنى سأفعل به ما يحلو لى ، ولن تحل بك اللعنة من أجل
خطيئة ارتكبها أنا . وإذا كانت الطبيعة تعلمنا أن يحب
كل منا صاحبه ، فليرتفع من بيننا كل رياء ؛ فعلى من يبدأ
منا بإعلان الحرب على أخيه أن يتحمل تبعة عمله ، ولا يلومن
إلا نفسه ،

هابيل : (بصوت أكثر عذوبة) قابيل ، يا أخى الجميل ، اصغ إلى ،

قابيل : بكل سرور ، فماذا تريد ؟

هابيل : أريد خيرك .

قابيل : لحسن الحظ .

هابيل : لا تثر أبداً ضد الرب ، ولا تصعر خـــدك غروراً ، صدق ما أقول .

قابيل : لست إلا راغبا فى ذلك ،

هابيل : اتبع نصيحتى ، ولتحمل إلى الإله الرب قربانا يروقه ؛ فإننا إذا أرضيناه ، لم تنقض علينا الخطيئة أبدا ، ولم يستول علينا الحزن مطلقا ؛ إذ من الخير أن نسعى إلى اكتساب حبه ، هيا ، ولنقدم على مذبحه قربانا نرجو أن يجذب انتباهه ، ولنتوسل إليه أن يمنحنا حبه ، وأن يحمينا بالليل والنهار !

قابيل : (وكأنه استحسن نصيحة هابيل) أخى الجميل هابيل ، لقد تـكلمت فأحسنت الـكلام ، وصغت موعظتـك فى خير أسلوب، وسأتبعها . هيا نقدم قربانـــا ، فإنك على حق . ماذا ستقدم ؟

هابيل : سأقدم حملا ، خير ما فى منزلى من حملان وأجملها . هـذا ماسأقدمه ،وليس شيئا آخر، ولـكنى سأضيف إليه البخور. ذلك ما أستقر عليه عزمى . وأنت ، ماذا ستقدم ؟

قابيل : سأقدم بعض قمحى ، كما وهبنى الله إياه .

هابيل : من خير ما لديك .

قابيل : كلا ، فى الحقيقة . إن خير ما لدى ساصنع منه خبزا هذا المساء .

هابيل : هذا قربان غير مقبول .

قابيل : ماذاتقول ؟ لعلك تمزح .

هابيل : أنت رجل غنى ، ولديك ماشية كثيرة .

قابيل : نعم .

هابيل : ألا تعدها بالراس ،وتؤتى عنها الزكاة ؟ إنك ستقدمها إلى الرب نفسه ، فقدمها عن طيب خاطر تنل منه خير الجزاء. أهذا ماستفعل ؟

قابيل : كلا ،وألف كلا ، أيها الأخ الجميل ، يالها من حماقة ! أتريد ألا يبقى لدى من كل عشر مواش أملكها غير تسع ؟ إن نصيحتك هذه لا تساوى شيئا . هيا ، وليقدم

كل منا مايريد .

هابيل : هذا ما أوافق عليه .

قابيل : يذهبان نحو حجرين كبيرين جهزا من قبل لهذا الغرض ، ووضعا متباعدين بعض الشيء أحدهما عن الآخر بحيث إذا ظهر الرب كان حجر هابيل عن يمينه وحجر قابيل عن يساره . هابيل يقدم حملا ، وبعض البخور الذى يتصاعد دخانه نحو السماء . ويقدم قابيل حزمة قمح . وعلى أثر ذلك يظهر الرب ، ويبارك قرابين هابيل ويرد قرابين قابيل . بعد التقديم يلقى قابيل نظرة وعيد على هابيل ، ثم يذهب كل منهما الى حال سبيله (١)

قابيل : (وقد عاد نحو هابيل ، وأخذ يحاول استدراجه إلى الخارج لكى يقتله) هيا نخرج

هابيل : لماذا .

قابيل : لكى نريح جسمينا، ونرعى عملنا ، ونرى ما إذا كان قمحنا قد نما وغطاه النور . وسنرجع بعد ذلك ، حيث نكون أكثر نشاطا

هابيل : سأذهب معك حيثما أردت .

قابيل : هيا إذن ، فهذا خير ما تفعل

هابيل : أنت أخى الأكبر ، وسأفعل كل ما تأمر به .

قابيل : تقدم أمامى ، وسأتبعك على مهل وبخطى بطيئة .

(يذهبان الى مكان منعزل ، ويكاد أن يكون مختبئا ، حيث ينقض قابيل كالمجنون على هابيل لكى يقتله)

---

(١) انظر قصة هابيل وقابيل فى سفر التكوين من الكتاب المقدس .

قابيل : إنك ميت ياهابيل .

هابيل : أنا ؟ لماذا

قابيل : أريد أن أنتقم منك

هابيل : هل ترى أنى ارتكبت جرما ؟

قابيل : نعم ، أنت خائن ، وهذا ما قام عليه الدليل .

هابيل : كلا ، بكل تأكيد .

قابيل : أتنكر ذلك

هابيل : أنا لم أمل إلى الخيانة قط .

قابيل : ولكنك ارتكبتها ؟

هابيل : أنا ؟ كيف ذلك ؟

قابيل : ستعرف بعد قليل .

هابيل : لست أفهم شيئا .

قابيل : سافهمك بعد قليل

هابيل : الحقيقة أنك لن تستطيع مطلقا أن تقدم الدليل على ذلك .

قابيل : ليس الدليل ببعيد .

هابيل : الله فى عونى

قابيل : سأقتلك

هابيل : الله مطلع

قابيل : (مهددا إياه برفع يده) : هذا هو الدليل .

هابيل : إن اعتمادى كله على الله .

قابيل : إنه لن يجيرك منى .

هابيل : فى مقدوره أن يخجلك .

قابيل : لن يستطيع أن يجنبك الموت .

هابيل : ليس لى إلا أن أستسلم لقضائه فى كل أمر .

قابيل : سأخبرك بالحقيقة . إنك أصبحت وثيق الصلة بالرب الذى رفض لى كل شىء من أجلك ، و بسببك رد قربانى . أتظن أنى لن أحملك على دفع الثمن ؟سأقابلك بما أنت جدير به . سأتركك على هذه الأرض مجندلا .

هابيل : إنك إن قتلتنى ارتكبت إثما ، ولابد أن ينتقم الله منك لموتى ، الله يعلم أنى لم أعمل شرا ، ولم أفسد ما بينك و بينه ، بل لقد نصحتك ـ على العكس من ذلك ـ بأن تسير على المنهج الذى يليق بسلامه ، فقدم له الحمد الواجب له ، وقدم له الزكاة والبواكير والقرابين ، و بذلك تكسب حبه و إذا لم تفعل ذلك ، حل بك غضبه. إن الرب حق ، وهو يحسن معاملة من يخدمه ، ولا يقضى عليه بالهلاك .

قابيل : أنت كثير الكلام ، وستموت من فورك .

هابيل : ماذا تقول ، ياأخى ؟ أتهددنى ؟ لقد جئت هنا إلى الخارج ثقة فى وعدك .

قابيل : لم تعد فى حاجة إلى ثقة ، فسأقتلك ، وهذا ما يجب أن تتأكد منه .

هابيل : أدعو الله أن يشملنى برحمته .

هابيل يجثو على ركبتيه متجها نحو المشرق (ويجب أن يضع الممثل تحت ملابسه قربة مختفية ، فيضربها قابيل كما لو كان يقتل هابيل نفسه .

يبقى هابيل ممددا على الأرض وقد فقد الحياة . الجوقة تغنى الاية : أين هابيل أخوك ؟

المنظر الثامن

(فى هذه الأثناء يقبل الرب من الكنيسة نحو قابيل ، وبعد انتهاء الإنشاد يخاطبه في غضب)

الرمز : قابيل أين أخوك هابيل ؟ هل بدأت الثورة؟ إنك قد اشتبكت معى فى خصام ، والآن أرنى أخاك حياً .

قابيل : أأعرف أنا ، يامولاى ، أين ذهب ؟ وما إذا كان فى البيت أم فى حقل القمح ؟ لماذا يتحتم على أن أعثر عليه ؟ إنى لم التزم بحراسته .

الرمز : ماذا فعلت به ؟ أين وضعته ؟ إنى أعرف ذلك جيداً ، أعرف أنك قتلته . فقد صاح دمه يخبرنى بذلك ، وصعدت إلى روحه فى السماء . لقد ارتكبت جريمة منكرة ، وستظل ملعونا طول حياتك ، لن تفارقك اللعنة مطلقاً . هذه هى الجريمة ، وهذا هو العقاب . لا أريد أن يقوم إنسان بقتلك ، بل أريد أن تقضى حياتك فى العذاب ، و إذا أقدم أحد على قتل قابيل

أنتقمت لقابيل سبع مرات . إنك قتلت أخاك الذى وضـع
ثقته فيك ؛ وسيكون عقابك شديداً .

(ثم يتجه الرب نحو الـكنيسة . تقبل الشياطين وتقود قابيل الى الجحيم بقسوة ، وهى تنهال بالضربات الشديدة على رأسه وكتفيه ، كما أنها تحمل هابيل أيضا ، ولكن بلطف)

وفى هذه الأثناء يظل الأنبياء مختبئين على استعداد للظهور متتابعين ؟ ويتقدم كل نبى فى جلال بعد أن ينادى اسمه ، ويتلو نبوءته بصوت واضح متميز العبارات . وبعد أن ينتهى كل نبى ، يقوده الشيطان الى الجحيم)

نبوءة أشعيا

ومن بعده (يأتى أرميا) يأتى إشعيا ممسكا بيده كتاباً ،
ومرتديا عباءة فضفاضة ، ثم يتلو نبوءته .

« سيخرج من جذع يسى قضيب ، وتنبت من جذعه زهرة
تحمل عليها روح الرب » (١)

إشعيا : سأقول لكم قولا عجيباً : (٢)

---

(١) بعد أن يعلن اشعيا نبوءته هذه باللاتينية يعلق عليها بالفرنسية على هـذا النحو المذكور .

(٢) هـذا النص حتى آخـر التمثيلية مكتوب فى الأصل بالإنجليزية النورمندية . المترجم .

سيخرج من جذع يسى

غصن تخرج منه زهرة ،

تصبح جديرة بشرف عظيم ،

سيوليها روح القدس عنايته ،

وعليها سيتخذ راحته .

(وحينئذ يصعد رجل من المعبد ليجادل إشعيا ، ويقول له :)

يهوذا : هذا هو جوابى ، ياسيد إشعيا :

أهى خرافة أم نبوءة

تلك التى تفوهت بها هنا ؟

أ أنت الذى وجدتها أم هى مكتوبة ؟

أ أنت نمت وحلمت بها ،

أهى يقين أم مزاح ؟

إشعيا : إنها ليست خرافة ، بل كلها حقيقية .

يهوذا : إذن ، فأرنا حقيقتها .

إشعيا : إن ما قيل ليس إلا نبوءة .

يهوذا : أهى مكتوبة فى كتاب ؟

إشعيا : نعم فى [كتاب] الحياة .

إنها ليست حلما ، بل رؤيا .

يهوذا : وكيف رأيتها؟

إشعيا : بحق الله .

يهوذا : يبدو لى أنك هرم مخرف ،

ولقد أصبحت مضطرب العقل قبل الأوان ،

هذه هى الحال التى يبدو لى أنك صرت إليها .

أتعرف جيداً كيف تنظر فى المرآة ؟

إذن فانظر فى يدى هذه ،

(وحينئذ يمد أمامه يده)

لترى ما إذا كان قلبى مريضاً أم سليما .

إشعيا : إن فيك داء الخيانة

الذى لن تبرأ منه طول حياتك .

يهوذا : أأنا مريض ؟

إشعيا : نعم ، بالضلال .

يهوذا : متى أبرأ منه ؟

إشعيا : لن تبرأ منه فى أى يوم ، على وجه التأكيد .

يهوذا : إذن ، استأنف نبوءتك .

إشعيا : إن ما أقوله ليس هراء .

يهوذا : إذن ، أعد علينا الكلام عن رؤياك ،

وما إذا كان ذلك غصنا أم عصاة ،

وعماسينتج عن زهرته .

وحينئذ سنعتبرك أستاذاً ،

وهذا الجيل

سينصت إلى درسك

إشعيا : إذن ، أنصت إلى العجيبة الكبرى

التى لم تسمع بمثلها أذن قط ،

تلك التى لم يسمع بمثلها - مجرد سماع -

منذ وجد هذا العالم .

ها هى ذى العذراء تحمل، وتلد أبنا ، وتسميه عمانوئيل[1] .

إنه قريب ، وليس بعيدا ،

لن يتأخر وقوعه ، بل هو بين يدينا ،

ذلك أن العذراء ستحمل ،

وستلد العذراء ولدا

---

(١) سفر إشعيا ٨ ، ١٤ . والأبيات التالية ترجمة أنجلو نورمندية ، وشرح النبوءة . المترجم .

يسمى عما نوئيل ،
ويــكون رسوله القديس جبرائيل .
العذراء هى العذراء مريم ،
إنها ستحمل ثمرة الحياة ،
عيسى مخلصنا
الذى سيخاص آدم من العذاب،
و يعيده إلى الجنة :
وهذا الذى أقوله لــكم قد جاء من عند الله .
إنه حقيقة مقررة ،
وذلك مالابد أن يحيى الأمل .

معجزة المرأة

التى نجتها السيدة العذراء من الحريق

هذه المعجزة إحدى معجزات السيدة العذراء التى نجدها فى مخطوطة رائعة مزينة بالمنمنمات محفوظة بالمكتبة الأهاية ، وهى مخطوطة « كانجيه ٨١٩ ، ٨٢٠[١] » من القسم الفرنسى ، ويبدو أن تاريخها يرجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، وأنها تكون القائمة Réperloire الدرامية لإحدى الجمعيات الباريسية ، وتجمع هذه المعجزات بين نوع من الصوفية لا يخلو من السذاجة فى غالب الأحيان - وإن كان مؤثرا فى بعض الأحيان - وبين نوع من التصوير لعادات العصر لايخلو من لذة ، وموضوعاتها جد متنوعة ، ولكنها جميعا تحث على التفانى فى تمجيد العذراء . أما مؤلفوها فمجهولون .

اللوحة الأولى

غايوم[٢] : أريد ، ياجيبور ، أن أخبرك بعزمى : سأذهب إلى الحقل

(١) Ms. Congé 819 et. 82o'

(٢) غايوم وجيبور اسمان من أسماء شخصيات الملاحم ،وقد استعارهما المؤلف المجهول من انشودة غايوم الحماسية .

دون إبطاء لكى أتفقد حاصلاتى؛ ولكى أضمن ـ باعتبارى رجلا بعيد النظر ـ وجود عمال الحصاد : فإنى أعرف أنه قد آن أوانه ، ولم يعد من الممكن أن ننتظر[1] .

جيبور : كما تريد ، ياسيدى . فلست أريد أن أعارضك فى شىء ، وأنا واثقة من أنك سديد الرأى ؛ ولا يسعنى إلا الموافقة على رأيك .

الابنة : آه ! أرجو أن توافق، يا أبى العزيز ،على أن أذهب معك؛ ففى ذلك لى بعض التسلية ، وقد مر على وقت طويل لم أخرج فيه من هنا ، وليس فى الإمكان أن أجد لى صحبة خيرا من صحبتك .

غليوم : تعالى ، إذن ، يا ابنتى ما دام ذلك يسرك .

الابنة : هيا ، ياسيدى ، إنى جاهزة . وداعا ، ياأمى .

جيبور : احذرا أن تسيرا فى مكان طرقه غير مضمونة .

(يخرج جيوم وابنته . جيبور تخاطب زوج ابنتها) .

أنه ليسرزوجتك ـ يا أوبان ـ أن تذهب مع أبيها . وأنا

---

(١) الشخصيات فى النص الأصلى الذى نقل عنه مؤلف الكتاب المترجم تعبر عن نفسها بنوع من النظم ذى تقفيه ووزن خاصين به .

ذاهبة إلى الـكنيسة ، يادمهرى . ألا تريد أن تصحبنى إليهـا ؟

أوبان : لو رفضت لك ذلك ، لاعتبرت نفسى غير حكيم . هيا ، ياسيدتى : إنه ليسرنى أن أعمل وفق إرادتك .

جيبور : هيا . فلا شك أنى سأكون جد مسرورة ، إذا استطعت الحصول على مكان قريب من الواعظ ، وبعيد عن الضوضاء . هيابنا !

اللوحة الثانية

الجار الأول : هيه ! انظر ، ياجوتييه ! ألا ترى أن زوجة العمدة تصحب زوج ابنتها ؟ لقد أكد لى بعضهم أنهمـا اصبحا شخصـا واحـــــدا .

الجار الثانى : يشاع فى المدينة أنه يعاملها كما لو كانت زوجته ، وهذا ـ فى رأيى ـ عار كبير بالنسبة لـكل منهما .

الجار الأول : هذا حق ، ولـكنهما لن يتخليا عن هذه الصلة ، مهما قلنا ، فهيا بنا نحضر قارورة النبيذ التى قررنا شربها معا .

هذا خير ما فى وسعنا أن نفعله : ما رأيك فى ذلك ؟ ألست على صواب ؟

الجار الثانى : لن أرفض : هيا ، يارو بير (يخرجان) .

جيبور : أريد أن أركع هنا . فإذا لم ترد أن تنتظر ، وفضلت أن تذهب للتسلية فى المدينة ، فإنى لن أمنعك .

أوبان : نعم ، أريد ذلك بكل سرور ، فلم أتعود البقاء فى الكنيسة كل هذا الوقت من أجل الصلاة لله، أو الإصغاء إلى الوعظ (يخرج)[1] .

جيبور : (تدعو) : ياسيدة السماوات العلى ، ما أتعس شخصا لا ينقطع لخدمتك ، ولكن ما أسعد طالع الشخص الذى يهبك قلبه وتفكيره ! ذلك لأنه لا ينخرط أحد فى سبيل الشر إلا وتأتين لنجدته ، حتى أنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد تخلص من آلامه منذ اللحظة التى ينقطع لك فيها . أنت يامن فى السماء حقيقة بجوار الجوهر الإلهى ، ومن الـ

---

(١) تقدم لنا المخطوطة نص الموعظة نثرا ، والحقيقة أنه يتسم بشىء من الحذلقة ويدور كله حول تمجيد العذراء .

السيادة والسلطان على جميع القديسين ، أرجوك ياعذراء ، باطفلك السامى ، أن تكونى لى ملجأ ، وأتوسل إليك فى ذلك بكل قلبى . وقبل موتى طهرى روحى ، حتى إذا ما حان انفصالها عن هذا الجسد استطاعت أن تتجنب ليل الجحيم ، وأن تكسب تراث السماوات الذى أهفو إليه بكل ما فى من قوة .

اللوحة الثالثة

اعرپي : سيدتى العرابة ، أرجو الله أن يمنحك يوما طيبا .

جيبور . سيدى العراب الجليل ، نرجوه أن يغفر لنا ذنوبنا ! كيف حال عرابتى ؟ أرجو أن تكون على مايرام .

العراب : نعم ، الحمد لله ! وأنت ، ياسيدتى العرابة ؟

جيبور : بخير . وإنى أحمد الله ، ياعراب ، لأنه أكرمنا ، فجعلنا نختار لابنتنا زوجا لطيفا كهذا الزوج . أعتقد أنه لم يكن فى مقدورها أن تجد خيرا منه .

العراب : ياسيدتى العرابة ، يؤلمنى أشد الألم أن أسمع الناس ينهالون باللوم والتجريح على شخص يحتم على حبى إياه أن أدافع

عنه بكل قواى ، وأن أحذره من أجل المحافظة على شرفه .

جيبور . لماذا تتكلم هذه اللغة ؟ قل لى ، ياعراب .

العراب : سأشرح لك ذلك ، ياعرابتى . يروج الناس فى كل مكان من هذه المدينة إشاعات شريرة حولك وحول صهرك ، ويدعون أنك تكنين له نوعا من الجنان الآثم ، وأنكما تكونان معا شخصا واحدا ؛ هذا ما يقال فى كل مكان، كما يدعى بأنه لا يبدو على هذا النحو من اللطف إلا لأنه محبوب من الأم والإبنة على السواء .

جيبور : واأسفاه! أتروج عنى فى المدينة مثل هذه الشائعات؟ أقسم لك بما لك عندى من مقام ـ ياسيدى العراب ـ بأن هذه كلها إشاعات زائفة . لاأدرى من الذى روج كل ذلك ، ولكن لاشك أنه ارتكب خطيئة عظمى . لاقدر الله لى أن أوصم بارتكاب مثل هذا العمل !

العراب : سيدتى العرابة ، إنى أحذرك بحسن نية ، والله على ماأقول شهيد . فلا تمدحينى ، ولا تلومينى ، ياعرابتى الجليلة !

جيبور : إنى أشكرك على ذلك ، ياسيدى العراب ، وأرجوك ،

إذا سمعت هذه الشائعات مرة أخرى ، أن تكذبها بكل قواك

العراب : أنا واثق من براءتك كل الثقة ؛ والآن أدعو الله أن يحيطك بحمايته ! وإلى اللقاء .

جيبور : بارك الله لك في يومك ، ياسيدى العراب ! شكرا لك .
(تتق و....) ماهذا ، ياأم الإله الحبيبة ؟ ماذا جرى للناس حتى يظنوا بى هذا الظن دون سبب ودون علة؟ أقسم أن هذه خيانة عظمى . ماذا فى مقدورى أن أفعل ؟ إنى أتألم وأبكى وأنتحب . ماذا أفعل ، ياأم الإله الحبيبة؟ ان يهدأ لى بال حتى أجد الوسيلة التى أمحو بها تلك الشائعة التى روجوها ضدى .

اللوحة الرابعة

الحصاد الأول : زميلى وصديقى سانفستر، هيا بنا إلى الميدان ؛ نرى ما إذا كنا نجد سيدا . إننا لانملك مليما ، ولا يصح أن نغادر هذه المدينة دون أن نربح بعض المال .

الحصاد الثانى : هذا رأى صائب ، يامندو ، هيابنا . إنى مستعد ، وهاهو منجلى ، نخذ منجلك ، أنت أيضا . ولننطلق ! سر إلى الميدان مباشرة .

الحصاد الأول : هاأنذا أذهب ، اتبعنى . إن الصباح لايزال مبكرا ، ياسلفستر ، انظر ، ليس فى الطريق سوانا .

الحصاد الثانى : لاضرر من ذلك ، يامندو : نخير المرء أن يكون الأول من أن يكون الأخير . وإذا شاء الله ، فإننا لن نلبث أن نعثر على شخص ما يمكننا من ربح بعض المال .

جيبور : (داخلا) : لن يعرف قلبى معنى السرور حتى أمحو هذا العار الذى لحق بشرفى. ولكنى لاأعرف كيف أصل إلى ذلك، إلا أن يكون بموت صهرى . لاشك أنه يجب على أن أعمل على ذلك . لافائدة لمالى إذا أنا لم أبذل منه لأحد الغرباء مايكفى لإقناعه بقتله بيديه . والواقع أن هذه هى اللحظة المواتية ؛ لأن هناك كثيرا من العمال الغرباء الذين أقبلوا من كل مكان يبحثون عن رزقهم فى عرض الطريق . يجب على المرء أن يختار أخف الضررين . سأذهب من فورى إلى الميدان لأرى ماإذا كنت أجد أحداً أكلمه فى

هذه المسألة . نعم أنى أرى هنالك عملاقين تبدو عليهما
القوة والجرأة والاستعداد لإرتكاب أى منكر . أيها
السادة ، أجئتما هنا من أجل العمل ؟

الحصادالأول: نعم ، ياسيدتى ، أأنت فى حاجة إلينا ؟

جيبور : ربما ، من أين اقبلتما ؟ قولا لى .

الحصادالأول: إننا من كيروتوا[1] ، ونعرف كيف نحصد القمح وندرسه .
فإذا كانت لديكم حقول تحتاج إلى حصاد ، فإنه
يسرنا أن نعقد معكم صفقة ، وسيتم العمل بسرعة
و إتقان ، ياسيدتى .

جيبور : أيها السادة الأجلاء ، إننى امرأة تستطيعان معها أن تربحا
كثيرا دون مساومة ، إذا أردتما .

الحصادالثانى: بشرفى ، ياسيدتى ، إن ذلك يسرنا كثيرا ، فماذا
تريدين عمله ؟

جيبور : أريد منكم ـ قبل أن أكلمكم فى مسألتى ـ أن تقسما لى
على المخلفات المقدسة بأنكما لن تفشيا كلامى لرجل
أو امرأة ، و بعد ذلك سأشرح لكما قصدى .

---

(١) قرية على الشاطىء الشمالى لخليج السوم .

الحصادالثانى : أما من جهتى فإنى أبادر ، ياسيدتى ، بأن أقسم لك بأنه لن يطلع أحد على سرك دون إذنك .

الحصادالأول : وأنا أيضا ، ياسيدتى ، أؤكد لك أنه لن يعرف منى أحد شيئا . فكلمينا ـ إذن ـ عما تريدين ، وأنت مطمئنة .

جيبور : هذه هى رغبتى ، أيها السادة : أريد منكما معا أن تقتلالى رجلا ، بالرغم من أنه من إصدقائى . خذا من مالى ما تشاءان ، فإنى موافقة على ذلك . فقد تلوث شرفى بسببه ، هذا ماتجرى به الإشاعات ، وإن قلبى ليشعر من جراء ذلك بالحزن والكآبة إلى الحد الذى يعجز لسانى عن وصفه .

الحصادالثانى : سيدتى ، سيدتى ، سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن صواب ، فإنى أنا وزميلى ... أسلميه إلينا ، أسلميه ، وسيتم كل شيء تبعا للقواعد ، ودون أن يستطيع الإفلات منه .

الحصادالأول : نعم . ولكن يلزمنا الوقت الذى يمكننا من إنجاز هذا العمل دون أن يرانا أحد .

جيبور : سأخبركما فورا بالطريقة . سأضعكما فى مخزن مؤنى ، وأرتب أمرى على أن أرسله لإحضار بعض النبيذ ، فإذا أمسكتما

به ، فاقتلاه دون إحداث جرح أو إسالة دم من البطن أو
الرأس أو الجانبين ، بل اختقاه .

الحصادالثانى : سيتم ذلك فورا : ضعينا إذن فى مخزن مؤنـــــك
وتكفلى بالباقى .

جيبوز : بكل سرور ، ياسادة . والآن هيا أمامى ! تعاليا معى ،
وأقسم لكما أنى سأدفع لكما أكثر من الكفاية .
ادخلا هنا ، ولن أتناول طعامى إلا بعد إرساله إليكما
، عنهما ، الآن أصبحت مسألتى فى طريقها إلى الانتهاء .
فى وسعه الآن أن يحضر ، فليس معى فى البيت أى كائن
حى ؛ لأن زوجته فى الخارج ، أما هو ، فلن يلبث أن يحضر ،
فليحدث ما يحدث ، إنى منتظرة هنا .

اللوحة الخامسة

أوبان : لن أبقى فى هذا المكان أكثر من ذلك . فإن ساعة
الإفطار قد اقتربت . سأذهب لكى آكل نصيبى من هذا
الديك الذى رأيته يوضع فى السفود منذ قليل . فمن الخير

لى أن أكون هناك قبل الأوان لا بعد الأوان ،
هذا أحسن .

جيبور : يجب أن أدعى المرض : فإنى أرى صهرى قادما . سأجلس
معاقة الرأس ، مغمضة العينين .

أوبان : ماذا بك ، ياسيدتى ؟ أسبغ الله عليك صحة الجسم والروح!
هيا ! ألست فى حالة حسنة ، ياسيدتى ؟ قولى لى .

جيبور : أعتقد أن جسمى كله يرتعد ، وأنى أعانى حمى شديدة .
وقد استبد بى العطش حتى كاد يقتلنى ، ياصهرى أوبان .
فأرجوك أن تأخذ إناء نبيذ ، وأن تملأه من المخزن . أسرع
حتى أبل غلتى .

أوبان : سأفعل بكل سرور ، ياسيدتى ، بالرغم من أن ذلك
مضر بك ، ومع ذلك فسأحضره لك ، ما دامت هذه
رغبتك .

جيبور : عجل بالذهاب (يخرج) لقد انتهى الأمر : سأتخلص
منه فورا . والآن يجب أن أفكر فيما يجب أن أفعل
بعد ذلك .

الحصاد الأول : لاتقاقى نفسك بعد الآن ياسيدتى . لقد انتهى

كل شيء ..

جيبور : أقتلتماه ، ياسادة ؟ بأى طريقة ؟

الحصاد الثاني : لم يكن لنا أن نختار فى ذلك ياسيدتي : لقد ضغطنا على عنقه بصورة جعلتنا نتحقق من موته .

جيبور : هذا حسن ، ياسادة ، يكفيني ذاك ، هيا بكل سرعة : يجب أن تحضراه هنا ، وسننزع عنه ملابسه ونضعه فى سريره وبعد ذلك سأعطيكما نقودكما ، وأدعكما تذهبان إلى حيث يشاء الله .

الحصاد الثانى : إننا تحت أمرك : وسنفعل ما تريدين بكل سرعة .

الحصاد الأول : أرينا ، ياسيدتى ـ دون إبطاء ـ أين تريدين أن نضعه ، أرجوك أن تعجلى قبل أن يقدم علينا أحد .

جيبور : من أجل أن يتم كل شيء بسرعة ، أرقداه على هذا السرير ، أيها السادة ، وكأنه ينام ليأخذ لنفسه قسطا من الراحة . حسن جدا . إنه هكذا كما كنت أريد . خذا ، ولا تبطئا فى الرحيل ؛ حتى لا يراكما أحد .

الحصاد الثانى : لن يمكن الإمساك بى ما دمت على قدمى .

الحصاد الأول : ولا أنا ، كونى واثقة من ذلك . ومادمنا قد حصلنا على النقود التى ننفقها ، فلنرحل دون إبطاء ، ياسيدى سلفستر

(يخرجان)

غلموم : سيدتى ،لقد جئنا مبكرين أكثر مما كنا نظن ، أحضرى الخبز والنبيذ والمفرش . أريد أن أنزع هذا المعطف الذى يشبه العباءة . إنه لا يصلح إلا للشتاء . لقد استبد بى الجوع ، وأريد أن آكل ، هيا ، أحضرى النبيذ بسرعة : وأنت يا ابنتى ، اذهبى فى هذه الأثناء لاستدعاء أوبان : وبعد ذلك سنتغدى سويا . وأظن أننا سنقوم بالحصاد غدا ، وبعد فسأبدأ بالبحث عن بعض الرجال ؛ ولذلك لا أريد أن أبقى وقتا طويلا ، الآن على الأقل .

جيبور : مارى ! أوبان لا يزال فى سريره .

غليوم : لقد تأخر فى النوم . اذهبى لاستدعائه ، اذهبى ، يامجنونة قولى له أن ينهض .

اللوحة السادسة

الإبنة : أوبان أوبان ! إذا كان ذلك لا يضايقك ، استيقظ لتقول لى

إذا كان النهار قد طلع أم لا : ألم تنم اليوم نوما كافياً، ياسيدى العزيز ؟ ما هذا ! إنه لا يجيبنى . سأقترب منه لأعرف ما إذا كان مستيقظا أم لا، ما إذا كان نائما حقيقة أم مستيقظا. (تكشف عنه الغطاء) هيا ! قم ، ياسيدى ، قم ، دون إبطاء ! أتراك ستقضى النهار كله فى النوم؟ ما هذا ؟ آه ياأمى ! ياأمى ! هذا خبر فى غاية السوء . لا بد لى أن أئن، وأن أبكى بأعلى صوتى كمن يملؤها اليأس ، لقد ضعت .

اللوحة السابعة

جيبور : ماذا يبكيك على هذا النحو المفجع ؟

الابنة : لا أستطيع إلا أن أبكى : فقد ولت لحظاتى الحلوة ، وأيامى السعيدة ، لقد مات أوبان . يا للحسرة ! يا للحسرة ! ماذا أفعل ! لا شك أنى سأموت هما عليه ، آه ! يا أوبان الحنون ! لقد انتهى قراننا أسوأ نهاية ، و بأسرع وقت !

غليوم : إنه لألم قاس، ونكبة مروعة ؛ كنت أفضل أن أفقد جميع ما أملك . أحقا ، يا ابنتى ، ما أسمعه منك ؟

الابنة : بل لقد أصبح لونه فى صفار الشمع . ألا تصدقنى يا أبى ؟
واحسرتاه ! عروس دون عريس ! ها أنذى ، بائسة مهجورة .

جيبور : آه ، يا ابنتى العزيزة ! يالها من خسارة ! لا شك أنه يجب على أن ألوى يدى ، وأحث عينى على البكاء ، ما دمت قد فقدت أوبان الحبيب الذى كان يحترمنى ، ويحبنى من كل قلبه .

الابنة : وا أسفاه ، يا أمى ! لم يكن يدعونى إلا بصديقته وأخته ، لذلك يحق لى أن أشعر بالحزن فى أعماق قلبى .

الجار الأول : كان الله فى عونكم ! ماذا يجعلكم تصيحون على هذا النحو وتنتحبون ؟ أحدث لديكم ما يحملكم على هذا الحزن الشديد ؟

غايوم : نعم ، يا روبير ، يا جارى العزيز : لقد مات أوبان .

الجار الأول : آه ! رحمه الله رحمة واسعة ! أؤكد لك ، يا جارى غايوم ، أن هذا الخبر أحزننى . وأقسم لك بعذراء بونتواز أننى أود لو أستطيع فداءه . ومع ذلك دعنى أسألك : ما فائدة كل هذا الحزن ؟ لا شىء ، بكل تأكيد . نعم أنا أعرف جيدا أنه فى هذه الحال يجب أن نترك الأمر للطبيعة ، ولكنك تفعل خيرا إذا قللت من ألمك بعض الشىء .

الابنة : كيف يمكن ذلك ؟ إنى أزعم ، يا روبير ، أن الله كان قد

أعطاني أرق الرجال الذين رأيتهم هذه الأرض، وأرجحهم عقلا، وأصدقهم حبا، وأحلاهم طبعا، وأوسعهم أفقا؛ لذلك ألا ترى من الطبيعي أن يستولى كل هذا الحزن على قلبي ؟!

جيبور : نعم، هذا حق، ليست هناك امرأة في الإقليم كله قد لاقت ما لاقيت أنت من توفيق في الزواج؛ ولكن هذه هي الحال، لقد مات. فليتغمده الله برحمته !!

الجار الأول : أنصتوا ! إذا احتجتم إلى في أي أمر، فاطلبوه مني، ولا تتحرجوا، فسأفعله.

غليوم : إذن أرجوك، ياروبير، أن تحضر لي نعشا : وأعدك بأني سأرد لك هذا الجميل نفسه في فرصة أخرى.

الجار الأول : سأعجل بإحضاره إليك، بأية طريقة.

اللوحة الثامنة

الجار الثاني : أسبغ الله عليك ثوب العافية، ياروبير، إلى أين أنت ذاهب ؟

الجار الأول : أريد أن أحضر نعشا ، ياصديقى جوتييه .

الجار الثانى : نعشا ! لمن ؟ أهذه مجرد فكرة ؟ قل لى ، أيها الجار .

الجار الأول : كلا ، ياجوتييه ، إنه لأوبان ، صهر العمدة .

الجار الثانى : أوبان ! رحمه الله ورفق بروحه !

الشرطى الأول : نزهك الله عن الملام ، ياجوتييه ، من الذى يقول إنه مات ؟ إنى لم أسمع جيداً .

الشرطى الثانى : أوبان ، ذلك الذى كان صهر غايوم ، عمدة شينى [1] ، لقد رأيته هذا الصباح سليما قويا .

الشرطى الأول : ليرفق الله بروحه . فلاشك أن هذه خسارة كبيرة ، لأنه كان شابا جميلا ، حكيما ، فصيحا .

الجار الأول : كلنا سنمر بهذا الطريق ، وداعا ، يا أصدقاء .

الشرطى الأول : وداعا ياجوتييه ، أحسن الله يومك ، وأسعد شهرك ، أما أنا فسأذهب إلى الجلسة دون إبطاء ، لأن الوقت قد حان .

---

(١) هناك قريتان باسم شينى فى مقاطعة الإين

اللوحة التاسعة

القاضى : من أين أتيت ، حفظك الله ، هل جد أمر من الأمور لأحد الأشخاص ؟ ماذا يقال فى المدينة ؟ أجب .

الشرطى الأول: يدهش كثير من الناس لموت أوبان ، ذلك الشاب القوى الجميل ؛ لقد حدث ذلك . منذ لحظة .

القاضى : ماذا تقول بحق ملاك السماء ؟ أمات أوبان !

الشرطى الأول: هذا مايقوله الجيران ، ولا حديث للناس إلا ذلك .

القاضى : هذا يدهشنى : وإنى أتساءل كيف يمكن أن يموت الحاس ، الجالس . أعتقد أنه لابد أن يكون أحد ماقد جرحه لكى يموت على هـــذا النحو المفاجىء . ذلك مالا شك فيه .

اللوحة العاشرة

الجار الأول : دعه على الأرض بكل رفق ، ياصديقى ، من فضلك ، حتى لايتلف، وأرجوكم ،أيها الجيران،أن يقوم اثنان منكم

بوضع الجثمان فيه . على الظهر ، على الظهر ، يا أصدقائى المخلصين ، لا على الوجه .

الحمال : لا تقلق ، فإنه سيوضع خير وضع ، ياسيدى ، احمله من تلك الناحية ، وسأحمله أنا من هذه . هيـا ! ضعه .

الجار الأول : انتهى الأمر . ليلطف عيسى بروحه ، ويترفق بها !

الحمال : من منكم سيدفع لى أجر النقل ؟

جيبور : أنا ، ياصديقى ، بكل ارتياح ، ولن نحتاج إلى نقاش ، صل من أجله . خذ . واذهب لعملك ، هاك ثلاثة من البيض[1] .

الحمال : أتوسل إلى عيسى المسيح ، الملك القادر ، أن يمنح روحه الغفران الأبدى ! لو لم أكن أتقاضى أجرا أقل من ذلك على الأعمـال التى أقوم بهـا ، لرأيتنى أرتدى ثوبا جديدا .

اللوحة الحادية عشرة

القاضى : إنى أراك مهموما ، ياجودان ، من أين أقبلت مخفوض

---

(١) الأبيض عملة تساوى ثلاثة دوانق .

الرأس هكذا ؟

الشرطى الثانى: الحقيقة ، ياسيدى ، أن قلبى مضطرب بشكل غريب ، وإنى لجد مذهول من ذلك

القاضى : لامفر لنا جميعا من الموت ، سواء أردنا أم لم نرد .

الشرطى الثانى: أعرف ذلك جيداً ، ياسيدى ، ولكن الذى يدهشنى أنه منذ قليل ، وبعد أن أصبح الوقت ضحى ، كان يروح ويجىء فى المدينة ، ويتكلم مع هذا أو ذاك ، وهو فى أتم صحة .

الشرطى الأول : والله إنها لخسارة أى خسارة أن يكون الله قد أراد به ذلك .

القاضى : لايستطيع أحد أن ينزع من رأسى فكرة أنه لم يمت على هذا النحو المفاجىء إلا لأنه ضرب أو خنق أو صرع ، وأعتقد أنى على حق . هيا بنا ، فإنى أريد أن اشترك فى تشييع جنازته ، لعلى أجد وسيلة لمعرفة الطريقة التى مات بها .

اللوحه الثانية عشرة

الإبنة : آه ، يا أوبان الحنون ؟ كلما تذكرت وفاءك وحبك

العظيم الذى كنت تغمرنى به ، وحسن طباعك ، أثق من أنى على حق حين أشكـــو وأنتحب من أجلك ؛ لأنى فقدت كل مباهجى ، وغرقت فى بحر من الألم . آه ، أيها الموت ! ما أقساك حين فرضت علينا البعاد بعد هذا الزمن الوجيز ! خذنى ، أنا أيضاً ، التهمنى ! خلصنى من هـذا العالم ، فإنى أفضل ذلك ألف مرة على أن أعيش فى هذه الشدة .

القاضى : أسبغ الله سلامه ولطفه عليكم جميعاً !

غليوم : وجزاك أيضاً مثل ذلك ، يا مولاى ، بكرمه .

القاضى : الحقيقة أنى فى غاية الحزن ، ياماري ، من أجل مصيبتك، ومن أجل هذا الموت . وكم كنت أتمنى أن أحـول دونه ! وأريد أن أسألكم : كيف اختطف من بينكم بهذه السرعة؟ هل كان يشكو مرضاً ؟

غليوم : اعلم ، ياسيدى القاضى ، أننا منذ أن زوجناه ابنتنـا ، لم نسمع منه ــ أو من غيره ــ أنه يشكو مرضاً داخلياً، لا من هنا ولا من أية ناحية .

القاضى : لذلك يدهشنى أن يكون قد مات على هذا النحو .وأنت

يا امرأة ، ألا تعرفين شيئا عن طريق روحك ؟ ألم يكن في جمعية ما دبرت له هذا الشر ؟ أخبريني .

جيبور : كلا ، ياسيدى القاضى ، بشرفى ،أنا أيضاً جد مذهولة من موته بهذه الصورة المفاجئة .

القاضى : (للشرطيين) : تقدما ، أنتما وحدكما ، افتحا لى هذا النعش بسرعة ، ومزقا كفنه بحيث أستطيع أن أراه من الرأس حتى الفخذ ، وذلك لكى أبعد عن نفسى كل شك ، وسأواصل تحقيقى حتى نهايته قبل أن يتم دفنه .

الشرطى الأول : سنفعل ذلك بغاية السرعة ، يامولاى . هلم ! ولنرفع هذا الغطاء ـ ياجوبان ـ ثم لنمزق الكفن ، مادام ذلك ضروريا .

الشرطى الثانى : ماذا ؟ ! لننهض دون نقاش ، سأفك هذه الخياطة ، أتعد هذا كافياً ، يامولاى ؟

القاضى : اكشف لى كل وجهه جيداً ، حتى ارى العنق والصدر . كفى ! اقبضوا على الأم والابنة والأب . ليس فى وسعهم أن ينكروا الاغتيال : فهذا أمر واضح . انظـروا كيف أصبح عنقه أسود اللون . لاشك أن شخصاً قد خنقـــه . عجلوا بالتنفيذ دون ثرثرة ! اربطوا لكل منهما يديه متقاطعتين

خلف ظهره ، وسوقوهم كالكلاب فى الزمام ؛ ولن يهدأ لى بال حتى أعرف حقيقة هذا الأمر .

الأخ : أمدنا الله بعون من عنده ! وا أسفاه ! ماهذا ؟ أخى، ليس فى مقدورى إلا أن أحزن لموتك ، مهما تقوّل المتقوّلون .

ابن العم : أيها الموت الذى اختطفه ، لعنة الله عليك ! لقد أختطفت أشجع أفراد أسرتنا وأعقلهم . وا أسفاه ! إنها لخسارة كبيرة أن يصل المرء إلى هذه الدرجة من التهذيب ليموت هكذا سريعاً (1)

القاضى : أيها السادة ، هناك شىء أستطيع أن أؤكده لكم ، إنه قد قتل ؛ وهذا ما لا أشك فيه . أما أنتم ، فإنه لن ينجو منى أحد منكم ، وأقسم لكم على ذلك ، وما دام الأمر على هذا النحو ، فلابد من الوصول إلى الحقيقة .

غليوم : سيدى القاضى ، أستحلفك بالله أن ترأف بحالنا ! لاتعاملنا بهذه القسوة ، فإننا على استعداد لأن نذهب أو نبقى حيثما أمرت .

---

(1) هذا رثاء جنائزى أو تحسر على الميت ، وفى بعض الأحيان يصل هذا التحسر - فى أناشيد المفاخر وفى قصص الجاملة - حدا يجعل منه مرثاة حقيقية .

القاضى : لاجدوى لما تقول ! (للشرطيين) أيهـا السادة : افعـلا ما أمرتكما به .

الشرطى الأول: اعتبر الأمر منتهيا ، يامولاى . قم ياروبان بتقييد الأم ريثما أقوم أنا بتقييد الأب ، وعجّل .

الشرطى الثانى: لست فى حاجـة إلى أن تقـول لى ذلك أكثر من مرة واحدة . أقسم لك بروحى أنى سأسارع ما استطعت . هيا ! ناولينى ذراعيك ياسيدتى بسرعة .

جيبور : وا أسفاه ! ياتعاستى ! ما أشق هذا على نفسى ، ولـكنى لا أستطيع له رفضا . هيا ـ ياسيدى ـ افعل بى ما تشاء .

الابنة : وا أسفاه ! ياشقوتى ! ياهذا الألم المر الذى يـكاد يخنقنى حين أرى أبى وأمى يعانيان هذه المعاملة من قبل العدالة التى تبدأ بتقييدهما وتـكبيل أيديهما ، وذلك كله بسبب موت زوجى الذى ينفطر قلبهما حزنا عليه .

القاضى : ستعاملين ، أنت أيضاً ، هذه المعاملة ، ياصديقتى الجليلة ، وستذهبين معهما ، دون إبطاء . كبلها ، كبلها .

الشرطى الأول: سمعا وطاعة . هيا ، ياصديقتى الجليلة ، مدى لى يديك لـكى أكبلهما . من العبث أن ترفضى ، فهيا أسرعى .

الابنة : ها أنذى ، وقد انقضت على جميع المصائب التى يمكن أن تصاب بها امرأة ! فهذا زوجى وقد اختطفه الموت ، وهذا أبى وأمى وقد أحدق بهما خطر النفى ، وأنا نفسى أرانى مكبلة مقيدة لـكى أقاد كامرأة محكوم عليها بالإعدام . آه ، ياسيدة السماوات! ألقى علىّ نظرة عطف من عينيك العذبتين .

القاضى . إلى الأمام ، إلى الأمام ! لاتبطئوا . أيها السادة ، قودوهم أمامى . إنه يتحتم عليهم — بمقتضى اليمين الذى أقسمته أمام الملك — إما أن يعترفوا لى بالحقيقة ، وإما أن يخضعوا للاستجواب .

الشرطى الثانى : هيا ، مدوا خطى السير ، دون إبطاء .

القاضى : ادفنوا هذا الجثمان فورا .

ابن العم : من رأيى ، يا ابن عمى ، أن نوقف عرض التابوت فورا ، وأن نحمله إلى المقبرة مباشرة ، ثم نوصى بإقامة قداس مهيب له بعد الانتهاء من دفنه .

الابنة : حسن جدا . اعملوا على تنفيذ ذلك ، أيها الناس الطيبون ، من فضلكم .

غليوم : أيتها العذراء ، يا أم ملك السماء الحبيب ، ياملجأ الحائرين ومأ واهم ، ياسيدتنا ، امنحينا حمايتك ؛ فـإننا فى حاجة إليها .

القاضى : أسرع ، يا جو بان ، وبعد الانتهاء مما أنت فيه ، دع الأم فى السجن، ثم سق الابنة أيضا إلى الفردوس[1] من الناحية الأخرى ، وفى هذه الأثناء سأقوم ، أنا باستجواب غليوم .

الشرطى الثانى : سأفعل ذلك ، ياسيدى مادمت تأمر به .

جيبوز : مولاى ، مولاى ، سرح هذين البريئين حرين مطهرين ، واقتص منى أنا ، فإنى أسلم بذلك ، لأن قلبى لم يعد يحتمل مايقاسيان من آلام .

واعلم ، يامولاى ، أنهما لاشأن لهما بهذه القضية . فأنا التى عملت على تنفيذ الجريمة ، أنا وحدى .

القاضى : يجب أن تقولى لى ، كيف ارتكبت هذا الاغتيال ، كما لا بد أن أعرف الدافع إليه .

---

(١) أى السجن ، من باب التهكم ، وربما كانت هذه إشارة مسرحية معناها من جهة الفردوس فوق المسرح .

جيور : سأعترف لك بالحقيقة كلها [1]

... ...

القاضى : كفى وسقها ، ياجوبان ، إلى حيث أمرتك .

الشرطى الثانى: مولاى ، سمعا وطاعة . من هنا ياسيدتى ، من هنا !

القاضى : مما لاشك فيه أننى لم أسمع — منذ من طويل — عن مثل هذا الاغتيال الدنىء ؛ والآن أرد إليك حريتك كاملة ياغليوم ، وكذلك أرد إلى ابنتك حريتها . فاخرجا ، اذهبا من هنا بأسرع ماتستطيعان .

غليوم : مولاى ، سننفذ أمرك ، كما يجب أن يكون . أما أنت يا ابنتى ، فاعلمى أننى لن أدخل بيتا من البيوت التى أملكها قبل أن أذهب إلى دير العذراء — فى فينستير(٢) — لكى أصلى لها ، وأطلب منها أن تشمل أمك برعايتها ، فإنى أرى أن حياتها فى خطر ، هذا مالا شك فيه .

---

(١) هنا تشرح جيبور كيف ارتكبت الجريمة .

(٢) تكتب فى المخطوطة فينتر Fineterro ، ولعل المراد بها قريه فينستير الواقعة فى إقليم جاليس (إسبانيا) بالقرب من الرأس المسماة بهذا الأسم.

الابنة : أتفعل ذلك ؟ وأنا أيضا سأذهب ، مباشرة ودون إبطاء ، إلى ليموج ، وأقدم إلى القديس« ليونار » ما يعادل وزن جسمى من الشمع ؛ لكى يتوسل إلى مخلصنا أن يحمى أمى ، وأن يحفظها من موت قاس مهين .

غليوم : أرجو من تلك التى هى مليئة بالفضل أن تعطف عليها فى كربتها ! ولا بد لى ، يابنيتى ، أن أباركك قبل الرحيل، وأستودعك الله ،فلست أدرى ما إذا كنت سأعود إلى هنا يوما من الأيام .

الأبنة : وداعا ، يا أبى ! ولن يقر لى قرار قبل أن أحج إلى القديس ليونار ؛ لأحمل إليه رجائى .

اللوحة الثالثة عشرة

الأخ : سيدى العزيز ، لقد جئنا هنا طمعا فى فضلك؛ لكى نطلب منك أن تقتص لصديقنا .

القاضى : أهو قد دفن أم لا يزال فى القاعة حيث تركتكم معه ؟ إنى أعرف الحقيقة حول هذه الجريمة ، فماذا تقول ؟

الأخ : نعم ، ياسيدى ، لقد دفناه .

القاضي : عما قليل ستجد ما يرضيك . ياأوبرى ، اذهب وأحضر الجلاد ، وقل له أن يعجل بنصب المشنقة من أجل إعدام امرأة . وليأتني فورا بمجرد أن يتم كل شيء ، وليكن ذلك بكل سرعة .

الشرطي الأول: سمعا وطاعة ، ياسيدى . الحقيقة أنى أرى أن هذا العمل لا يعني غيرى .

اللوحة الرابعة عشرة

الشرطي الأول: هيا ، يا كوشيه ، أسرع ولا تضيع دقيقة واحدة . بأمر القاضي ، سيدنا ، اذهب سريعا، وانصب مشنقة فى البيت العتيق المتهدم . أسرع دون إبطاء . و بمجرد أن تنتهى من عملك ، اذهب إلى القاضي فى الجلسة . هيا عجل .

الجلاد : لن يلبث كل ذلك أن يتم ، ياصديقى . سأشرع فيه من فورى . أخبره أنى سأذهب إليه دون تلكؤ .

الشرطي الأول: سأقول له ذلك ، ياصديقى كوشيه .

اللوحة الخامسة عشرة

الشرطي الأول: مولاى ، لقد كلمت كوشيه . ولديه المذراة ، والعمود ، والـكلابة،والحبال ، وكل ما يلزم ، و بعد قليل سيأتى لرؤيتك بكل تأكيد .

القاضى : الآن ، ياجوبان ، أحضرلى جيبور هنا أمامى دون إبطاء . فإنى أريد أن أعرف ما إذا كان لا يزال لديها شى تريد أن تقوله لى .!

الشرطى الثانى : فورا ، يامولاى ، سأذهب . هيا اخرجى ، ياجيبور ، يجب عليك أن تمثلى فورا أمام القاضى .

جيبور : يا أم الإله الرقيقة ، هل لك أن تتذكرى تلك البائسة !! فإنى لا أعتقد أنى سأظل على قيد الحياة وقتا طويلا ، لذلك أتوسل إليك ، يا سيدتى الرقيقة، أن تشملى روحى برحمتـــك ، وإن كنت آثمة . آه يا سيدتى ! أغيثينى بـكرمك .

القاضى : جيبور ، يا صديقتى ، إنى أعرف ـ من نص اعترافك ـ أنك أنت التى قتلت صهرك،وسببت له الضياع. هكذا قدعرضت على القضية ، و برأت زوجك وابنتك ، وحملت الإثم كله

على كاهلك .

جيبور : هذه هى الحقيقة ، يامولاى ، أقسم لك على ذلك ، وقد أخبرتك ببواعث هذا الفعل ، وحدثتك عن كيفية ارتكابه وها أنذى أرى أنكم أتيتم بى هنا للعقاب ، فليسبغ الله رحمته على روحى ، وليتكرم برفعها إليه ، وليحفظها ويجنبها الجحيم التى لاشىء فيها غير العذاب .

الأخ : سيدى العزيز ، أطلب منك أن تقتص لى فورا من هذه القاتلة الشنيعة التى اغتالت أخى غدرا . أرجو أن تتكرم بإحقاق حقى فى هذه اللحظة دون إبطاء .

ابن العم : سيدى ، لاشك أن طلبه طلب عادل ؛ فما دامت قد اعترفت بالحادث ، فقد أصبح من حقه أن تجيب مطالبه .

الجلاد : مولاى ، لقد أصبح كل شىء معداً ، كما أمرتنى ، فإذا كنت تريد شيئاً آخر ، فما عليك إلا أن تصدر إلى أمرك .

القاضى : خذ حبلا ولفه حول عنق هذه المرأة ، فقد استحقت الموت المهين ، كبل أيضاً يديها ، و بعد ذلك سنغادر هذا المكان إلى مكان التنفيذ .

الجلاد : سأقوم بواجب مهنتى ، مادمت قد أمرتنى بذلك .

جيبور : وا أسفاه ! إليك ياسيدتنا التى أهلتك فضائلك العظيمة القيمة لدى الله لأن تكون لك السيادة على جميع الأرواح المجيدة التى تسكن الفردوس،وتستطيع البقاء فيه أبد الآبدين. إليك ، يامريم العذراء ، أتوجه راجية أن تعينينى فى محنتى ، وأن تسبغى رعايتك على روحى ؛ لأنى أرى جيدا ـ ودون ارتياب ـ أن جسمى لن يلبث أن يموت أشنع ميتة .

الأخ : ليس فى وسع إنسان أن يبلغ حد الكفاية فى أن يوجه إليك الاتهام والازدراء ، أنت أيتها القاتلة التى اغتالت أخى بتلك الصورة الشنيعة .

القاضى : سأجعلها تدفع ثمن جريمتها . اذهب ، يا أوبرى ، من فورك إلى الميدان العام ، وناد بأنه يجب ألا يتغيب رب أسرة عن الحضور إلى ساحة الإعدام ، ثم ارجع بعد ذلك .

الشرطى الأول: سأفعل ذلك ، يامولاى .

اللوحة السادسة عشرة

الشرطى الأول: أنصتوا جميعاً : إليكم ـ مجتمعين ومنفردين ـ أوجه الأمر بأن

تذهبوا سريعا لشهود الإعدام الذى سينفذه السيد القاضى ، وذلك لكى تروا جزاء من يجرم فى حق الملك .

الجار الأول : أنا ، والله ، أفضل الذهاب على دفع الغرامة .

الجار الثانى : وأنا أيضاً سأذهب للسبب نفسه .

القاضى : قفا ! أصبح عدد أفراد الموكب كافيا ، ولا بد أنه سيأتى عدد كاف من الأشخاص . سيرا أمامى ، أنت وهى ، يجب الانتهاء من هذه القضية ، يا كوشيه ؛ فإن البطء فى مثل هذه المسائل لايفيد . هيا ، هيا .

الجلاد : إلى الأمام ، يجب أن تجمعى أمرك على اتباعى ، ياسيدتى ، وليس لك أن تسألى : ماهذا ؟ فسأقودك فى طرف هذا الحبل، كما يجر الكلب من مقوده .

جيبور : آه ، يا إلهى ! لماذا لايتوقف قلبى عن الخفقان ، ولماذ لاينفجر ، حتى أموت قبل أن أتجرع المزيد من عار الكارثة التى أرانى غارقة فيها ؟ سيدى القاضى ، تكرم على بهذه المنحة من فضلك ، اسمح لى بالتوقف هنا بعض الوقت لكى أصلى لسيدة الفضل ، مادمت أمر أمام كنيستها . أنى أتقدم إليك بهذا الرجاء .

الجار الأول : أجبها ، ياسيدى العزيز ، إلى هذا الطاب ابتغاء مرضاة
الله ، دون أن تسمح لها بدخول المكان المقدس ، فهذا
عمل صالح .

الجار الثانى : لاشك فى ذلك ، ياسيدى . فإنى أعتقد أنها ستموت أطيب
نفسا ، إذا منحتها هذه اللحظات القصيرة ، وقد أمرنا
الكتاب المقدس بأن نود الخلاص لكل مخلوق .

القاضى : عجلى، إذن ، أيتها المرأة ، فإنى قد سمحت لك بذلك ،
مادام الجميع يرجوننى أن أسمح به . هنا ، اركعى على
ركبتيك .

جيبور : سمعا وطاعة ، ياسيدى العزيز الكريم — آه ، ياسيدة
الرحمة ! اشفعى لروحى لدى الرب ، ابنك الحبيب .
أنت ، يامن تعتذرين للخطاة ، وتمجدين أتباعك فى السماء .
ارأفى بيأسى . سيدتنا ، يا أم خالق الكون الرءوم ،
ارحمى بلطفك تلك التعسة التى تفيض نفسها بالأحزان
والآلام ؛ لأنى فى أشد الحاجة إلى عونك . أنقذى روحى
ساعدى روحى ، لأن جسمى لن يلبث أن يهلك حرقا

وشياً فى النار . لذلك أتهم نفسى أمامك بأنى آثمة بائسة، وأعترف لك بجميع الخطايا التى اقترفتها فى حق ابنك ، بالفكر، أو باللفظ، أو بالفعل . ياسيدتنا ! اطلبى لى العفو من الله ؟ فإنه هو وحده الذى فى مقدوره أن يمنحنى إياه ، وهو الذى يرى توبة القلوب بكل وضوح .

القاضى : إلى الأمام ، إلى الأمام ! قفوا ! هيا بنا لقد توقفت هنالك أكثر مما ينبغى ، فليس لدى من الوقت ما أضيعه ، وقد انقضى الجزء الأكبر من النهار . أسرعى ، يا جيبور ، سيرى ، سيرى . عجل باقتيادها يا كوشيه . لابد من شى جسمها فى نار حامية .

جيبور : آه ، أيتها العذراء ، أيها الحجر النفيس ! إنى أخاف ـ خوفى من الصاعقة ـ هذا القاضى الذى يتحرش بى ، ويتميز ضدى من الغيظ . أيتها العذراء الطاهرة دون غبار ، ياملكة العالم بأسره، ياعاهلة السماء وسيدتها ، اجعلى عذاب هذه النار ، وذلك الموت الشنيع المهين سدا منيعا بينى و بين عذاب الجحيم ، أنت ياملكة السماء المجيدة . احفظى روحى كما لو كانت متاعا لك ، فإنى أهبك إياها .

الجلاد : مادام لابد لى من الانتهاء معك ياسيدتى ، فإنه يتحتم عليك أن تجثى هنا على ركبتيك ،نعم ، هكذا وسأربطك من جانبيك ـ بهذا العمود ، ثم اصنع عقدة حول عنقك وصدرك ، وأشدها دون توقف .

جيبوز : أتوسل إليكم ـ يامن تنظرون إلى وجها لوجه ـ أن تدعوا سيدتنا من أجلى.هاهم أولاء سيحرقون جسمى بالناروالهب، فليكن فى مقدور روحى أن تتجنب نار الجحيم ، وألا تعانى لسعاتها ، أرجوكم ، أيها الناس الطيبون ، ألا يكون فى هذا الموت المخزى مايؤخذ على زوجى الذى لاشأن له به ، وكذلك الحال بالنسبة لا بنتى ؛ فإنى أعتقد اعتقادا جازما أن موتى سيقض مضجعهما و يغمهما ، و يغرقهما فى الأحزان،وأنهما يشاطرانى آلامى دون أن يستطيعا رداً لها ولا فرارا منها .

القاضى : فكر فى الإسراع ، ياكوشيه . إنها الآن مكتوفة بحبال شديدة ، فضع حولها قطع الخشب والقش من جميع الجوانب ، ثم أشعل فيها النار دون لف أو دوران .

الجلاد : لن أذوق الطعام أو الشراب قبل أن يتم ذلك . انظر ،

يا سيدى ، لا أظن أنه كان يمكن أن نفعل خيرا مما فعلنا ؛
فها هى ذى قطع الخشب تحيط بها من كل جانب ، كما لو
كانت فى وسط معجنة .
ولذلك لن تلبث النار أن تلتهمها .

القاضى : إلى النار ، إلى النار دون انتظار ! إلى النار بكل سرعة !

الجلاد : فورا ، ياسيدى . سأحضرها ؛ فقد أصبح كل شىء الآن
على تمام الاستعداد .

اللوحة السابعة عشرة

الرمز : أمى ، أى أمى ، هذه هى الساعة : حانت اللحظة التى يجب أن
تنزلى فيها ، وتدافعى عن جيبور وتنقذيها ، جيبور التى تناديك
بكل ضراعة ، وتتوسل إلى برحمتك أن تغفرى لها جريمتها .
هيا ، أنقذيها ، ولتعجز النار التى تضطرم من حولها عن إصابة
جسمها بالألم أو الضرر ، ولتقصر عن سلبه صفة الحياة .

سيدتنا العذراء : أى بنى ، إنى على استعداد للذهاب ، انهض ، ياجبرائيل ،
وانزل أنت أيضا ياميكائيل ، وترنما بالنشيد على طول الطريق

جبرائيل : سيدتى العذراء ، سيتم كل شىء على ما ترغبين أن يكون .

إلى الأمام ياميكائيل ، ولنترنم بالنشيد ـ ياصديقى ـ مادمنا قد انخرطنا فى الطريق ، لنترنم بألحان عذبة[1] .

حلقة[2]

أيها الرب القادر الرحيم ،
إن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يثوبون
إليك ، وإنه لالتجاء عذب ،
أيها الرب القادر الرحيم ؛
والحقيقة أن تدخل
لطفك ـ الذى لا تنساه الأذهان ـ
ينتزع قلوباً كثيرة من غوايه الشيطان .

---

(١) الملائكه تنشد مصحوبة بآلات وترية ، وأرغونات صغيرة يمكن حملها

(٢) يورد المؤلف هذه المقطوعة المسماة بالحلقه rondel فى نصها الانجليز النورماندى ، وهى لهجة تختلف عن اللغة الفرنسية الحاضرة اختلافا كبيرا ، ومن شأن الحلقة فى الشعر القديم أن تحتوى على قافيتين فقط . وهى هنا تتكون من ١١ بيتا ولكنها فى معظم الاحيان تتكون من ٩ أبيات أو ١٠ او ١٢ او ١٥ بيتا وتنحصر السمة الأساسيه للحلقة فى لازمتها التى تـكرر ثلاث مرات .

أيها الرب القادر الرحيم ،
أن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يثوبون .

: سأضرمها نارا حامية كثيرة الوقود إلى حد أن تحمل من حولها على الانسحاب بعيداً عنها .

العذراء: اطردوا ـ يا أصدقائى ـ هذه النار عن صديقتى الوفية ، حتى لا تصيبها بالضرر . ليشتد قلبك ، ياجيبور . وتأكدى أن هذه النار لن تلحق بك ألما أو عذابا ، ما دمت قد دعوتنى بكل هذا الورع .

: سيدتى ، يامن لك الحظوة والامتياز على قديسى الفردوس جميعاً ، يامن لك الحق فى أن تُمتدحى بالفم والصوت والكلام ، إذا كان قد طاب لك أن تبعدى هذا الموت القاسى عنى ، أنا التعسة ! أنا الضعيفة ، فكيف يتأتى لى أن أرد لك هذا الصنيع ، يامريم العذراء ؟

: أعتقد اعتقادا جازما أن تلك المرأة ستحترق ، فإن هذه النار قد قذفت بشرر عال شديد الحمرة .

الأخ : لقد كان الوقود جافا يامولاى ، وإذا أمسكت بها النار ، فلتحترق : فلن يعترينى لموتها أسف أو غضب .

الجلاد : مولاى ، إنى أرى الأغلال والحبال والأحزمة وقد اضطرم لونها ؛ لم يبق شىء إلا أحرقته النار ، ولكنها هى لاتزال سليمة ، لم يصبها جرح، ولم تسل منها قطرة دم . بل إنها ـ على العكس من ذلك ـ لاتزداد إلا جمالا .

الأخ : أقسم بالحشا والدم ، أيتها القاتلة ، أنك لن تنجى هكذا ، بل ستحترقين من فورك ، نعم ، لن تفرى من الموت بهذه السهولة. هيا ، أسرع ياابن عمى ، ولنذهب لإحضار الكثير من القش والخشب والأوراق والقشور الجافة؛ لكيلا تنجو من الموت بعد هذه الضربة .

ابن العم : أنا لا أطلب خيرا من ذلك ، فهيا يا ابن العم .

الأخ : أيها القاضى ، لما كنا نريد أن تحترق هذه القاتلة بكل سرعة ، وأن يتناثر لحمها رمادا ، فقد أتينا بما ينبغى لذلك .

القاضى : ألقيا فوقها بكل ما معكما ، فقد أذنت لكما بذلك ، حتى تشتعل فيها النـار ، وحتى لايبقى منها شىء ، لالحم ولا عظم .

السيدة العذراء: أيتها النار ، إنى أنهاك، وأحرم عليك أن تمسى هذه المرأة ،
أو أن تصيبها بضرر . تشجعى ، ياصديقتى الجليلة ، وهيا
بنا ، أيها السادة — أنتم وأنا — نصعد إلى السماوات .

ميكائيل : سنسير تبعا لرغبتك ـ ياسيدتى ـ انهض، ياجبرائيل، ولنترنم
بأصوات مؤتلفة .

حلقة[1]

والحقيقة أن تدخل
لطفك الذى لاتنساه الأذهان
ينتزع قلوبا كثيرة من غواية الشيطان .
أيها الرب القادر الرحيم ،
إن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يثوبون
(العذراء والملكان ينسحبون)

---

(١) يورد مؤلف الكتاب هذه المقطوعة فى نصها الأصلى دون ترجمة

جيبور : أيها السادة ، باسم الشفقة ، أرجوكم بكل خضوع ، أتوسل إليكم ، أن تقوموا بعمل طيب ، أنقذونى ، تفعلوا خيرا ، وكونى على ثقة بأنى لا أحس شيئا مما يفعل بى : إنى فى حماية كرم الرب .

لاتخجلوا من هزيمتكم ؛ لأن درعى هو السيدة العذراء التى هى ملكة السماوات وسيدتها ، وكذلك الرب الذى صار كفيلى معها .

القاضى : أيها السادة ، أيها السادة ، لاشك أن هذه معجزة ، وعجيبة كبرى لم يسبق لى قط أن رأيت لها مثيلا . إننا قد ارتكبنا خطيئة شنيعة ضد الرب بتعذيبنا هذا الجسم المقدس ذلك العذاب القاسى .

جيبور أيتها الصديقة العزيزة ، اخرجى من النار . أقسم بروحى ،وأعترف بأنك قديسة ، فلاتخشى شيئا .

جيبور : مولاى ، سأفعل ما تأمرنى به ، سأفعله عن طيب خاطر ودون مناقشة . ها أنذى خارج النار ، فماذا تود منى أن أعمل ؟

القاضى : سيدتى ، ها أنـذا أجثو على ركبتى ، وأطبق يدى على صدرى ، وأطلب منك أن تغفرى لى الحنق والغضب اللذين أثارانى ضـــدكِ ، وأن تتجاوزى عن الأذى الذى سببته لك .

جيبور : أستحلفك الله أن تنهض . فإنى لا أطلب منك أن تذل نفسك على هذا النحو ؛ لأنك — فى الحقيقة — لم تذنب فى حقى بشىء ، فإن جريمتى عظيمة إلى حد يجعلنى أهلا للإحراق مائة مرة ، لو كان ذلك فى الإمكان ، ولـكن لطف السيدة العذراء التى دعوتها من قلبى وروحى ، قد حمانى وأنقـذنى ، فإذا كنت قد أهنتنى فلتغفر لك أم الإله ماصدر منك ، ولتهبنا جميعاً ميتة كريمة ، آمين .

الجار الأول : لا يصح أن نبقى هنا بعد الآن ، فلننطلق معها جميعاً فى موكب إلى الـكنيسة ، لـكى تشكر الرب وأمه اللذين أحسنا حمايتها .

الجار الثانى : هذه فـكرة طيبة ، ويجب علينا تنفيذها .

القاضى : صديقتى العزيزة الطيبة ، إنهم يقولون حقاً ، فسيرى أمامنا ، وسنقتفى جميعاً أثر خطاك .

جيبور : ليكن ، ياMولاى ، مادام ذلك يروقكم جميعاً ، وقد فكرت فى ذلك ، أنا الأخرى .

الحـل[1]

الرمز : ألا هيا جميعاً ، هيا : فلننطلق .
فى يوم قربانى[2] هذا
وددت أن أسبغ الرضا على جيبور
من أجل القداس الذى قدمته لى ،
استدرارا لعطفى .
أنتما ، أيها الملكان[3] ، سيرا فى الأمام ،
وأنت يا أمى أتبعيهما ،
ونحن جميعاً سنسير من خلفك[4] .

---

(١) يورد مؤلف الكتاب هذه الفقرات حتى آخر التمثيلية فى نصها الأصلى منظومة دون ترجمة .

(٢) هو اليوم الذى دخلت فيه مريم المعبد لتقدم للرب ، الطفل عيسى ، سلحفاتين وداميتين من أجل تطهيره ، وهذا هو عيد التطهير الذى تحتفل به الكنيسة كل عام فى اليوم الثانى من فبراير .

(٣) يقصد بالملكين ميكائيل وجبرائيل .

(٤) الرب والملائكة الآخرون .

أيها الملائكة ، اعملوا ـ وانتم تسيرون ـ
على أن تترنموا بنشيد جميل .

ميكائيل : سنفعل ذلك ، يامولانا ، عن طيب خاطر ،
ومن أعماق قلوبنا لأسباب عديدة .
جبرائيل ، يا زميلي العزيز ، لنترنم
معا ببهجة ودون غضب .

حلقة

أيها البشر ، ينبغي أن يكفيكم
أن تكونوا محبوبين إلى هذا الحد من الرب
الذي مات شهيداً من أجلكم ،
أيها البشر : ينبغي أن يكفيكم ،
وكذلك حين يقول لكم على ألسنتنا
أحبوه أنتم أيضاً بكل قلوبكم
أيها البشر : ينبغي أن يكفيكم
أن تكونوا محبوبين من الرب إلى هذا الحد.

حنان : أنت ، يامليكة ملكوت الله ،

إذا طاب لك ، فقدمى هذه الشمعة :

واعملى بالمثل فى هاتين أيضا .

سيدتى ، سأذهب من هذا الطريق .

أنت ياصديقى منصور ، خذ هذه ،

وخذ هذه الشمعة يالوران ،

لـكى تقدمها أنت أيضا

بعد إنشاد القداس .

وخذى ، أيتها المرأة ، وبحسن نية

وخشوع عظيم لا يشوبه الاعوجاج ؛

احمدى الله على هذه النعمة .

جبرائيل : هيا ! لنبدأ ، بصوت عال ،

مقدمة القداس دون تخلف .

لننشد قداس الاعتراف .

فهيا ، ياميكائيل ، هيا !

(وهنا ينشدون جميعا ، ثم تذهب السيدة العذراء القربان، والآخرون من خلفها ، وبعد ذلك تقول السيدة العذراء)

السيدة العذراء: اذهب ، ياميكائيل ، وقل لهذه المرأة

أن توجه لنفسها أشد اللوم
على أن جعلت القس ينتظر كل هذا الوقت،
وأن تأتى دون أبطاء
لتقدم شمعتها .

ميكائيل : سمعا وطاعة ، أيتها العذراء المجيدة .
أيتها السيدة ؛ تعالى دون أبطاء ،
إلى القربان ؛ فقد طال
انتظار القس : هيا ، قدمى ،
إنه من سوء التصرف أن تجعليه
ينتظر هكذا ...

جيبور : أيها الصديق ، اعلم أن هذه الشمعة
لن أقدمها إلى أحد آخر ،
بل سأحتفظ بها وديعة غالية ،
فليستمر القس ، وليعمل
على أن يتمم قداسه
دون انتظار ..

ميكائيل : سأبلغ هذا الجواب .

أيتها العذراء المجيدة مريم :
لقد أخبرتنى أنها لن تأتى مطلقا ،
وعلى القس أن يستمر فى صلواته
وأن يتمم قداسه
دون انتظار ...

السيدةالعذراء: جبرائيل ، هيا ، اذهب إليها فورا .
وقل لها إنه لا بد من المجىء
وأن لا بد من تقديم قربان
الشمعة فى هذا اليوم .

جبرائيل : سيدتى ، سأذهب دون إبطاء
لتبليغ ذلك . أيتها المرأة : سلمى نفسك
فورا ، هذ أمر السيدة العذراء .
أحضرى الشمعة للقربان ،
إنك تعملين عملا غير حميد
حين تجعلين القس ينتظر إلى هذا الحد .
فهيا ، سارعى بالانطلاق
وتعالى قدمى ...

جيبور : فى وسعه أن يستغنى عن حضورى .
ليقل قداسه ، فخلاصة القول
أنى لا أفكر فى الذهاب إليه
ولن أذهب إليه ...

جبرائيل : سأقول هذا لسيدتى ،
وأنك لا تريدين المجىء .
سيدتى ، إنها تريد الاحتفاظ
بشمعتها ، وقد قالت لى فى هذه اللحظة :
إنها لن تقدمها بكل تأكيد :
هذا كل مافى الأمر ...

السيدة العذراء: اذهب إليها مرة أخرى من فورك
وقل لها ألا تتباطأ
فى المجىء ، وأن تقدم الشمعة فورا ،
وإذا أصرت على العكس
فانزع الشمعة بالقوة
من بين يديها ...

جبرائيل : سيدتى ، لن يجدى معها غير ذلك .
أعود إليك ، أيتها الصديقة الجليلة ،
تعالى قدمى ، ولا تتباطئى ،
و إلا نفذت ما كلفت بتنفيذه
وانتزعت من بين يديك
هذه الشمعة بالفعل . . .
جيبور : لن يتأتى لك من القوة ،
أيها الصديق ، ما يمكنك من نزعها من يدى
وإنى أنهاك ، وأحرم عليك
أن تمسها ...
جبرائيل : مادمت سأمسك بها من وسطها
فسأكون المسيطر عليها ،
جيبور : سأركز فى ذلك كل قوتى ،
ومن ثم ستبقى لى بكل تأكيد ؛
إنما لن تفلت من يدى ،
وكل جذب من قبلك سيكون عبثا .
جبرائيل : لن تلبثى أن تقولى غير ذلك

فسأنتزع هذا الجزء من يدك .
وأنت ، يا سيدة السماء ، إنى أقول لك :
هذا كل ما استطعت الحصول عليه ؛
إذا كنت قد بذلت ما فى جهدى
لانتزاعها ...

رمز : — إلى الأمام : فإنه لا يجوز الشك
فى أن ما لديها منها حق لها
ستحتفظ به كأعز ما لديها
و بكل حرص وتفان .
هيا ، ولنكمل موكبنا
بالذهاب إلى السماء ؛
وأنشدا ، أيها الملكان ، فهذا خير
ما أرى فى ذلك الأمر .

ميكائيل : — أيها الإله الحق ، سنفعل ذلك بكل بهجة ،
ودون أن نخالف لك أمرا .

حلقه : — وكذلك حين يقول لكم — بألسنتنا — :
أحبوه أنتم أيضاً من كل قلوبكم ،
أيها البشر ينبغى أن يكفيكم

أن تـكونوا محبو بين من الرب إلى هذا الحد .

جيبور : — أيتها العذراء ، على فضلك العظيم
أشكرك . يا إلهى ! أين كنت ؟
يبدو لى يقينا
أنى كنت فى كنيسة كبيرة .
حيث رأيتك فى صورة ملكة
ومن حولك القديسون من كل جانب ؛
وهناك أنشد ابنك القداس
الذى كان يردده القديس منصور شماسه
والقديس لوران مساعد شماسه .
و بدا لى أنه كان هناك قديس
ناول كلاً منا شمعة ،
وقد بدأ بك أولا
وانتهى بى أخيرا ،
وذلك قبل بداية القداس ؛
و بعد ذلك ، حينما تم القداس
بصوت عال ، وجاء دور القربان ،
بدأت أنت بالتقديم

ثم تتابع الجميع من بعدك .
وعندئذ جاءنى ملاكك مُصراً - كل الإصرار -
على أن أقدم الشمعة التى معى
والتى كنت أريد الاحتفاظ بها كاملة ؛
ولكنى لما لم أرد ذلك ،
أنتزع منى نصفها
وذهب به مستعينا بقوته .
ولكن الذى يعزينى ، يا سيدتى ،
أنه حين قصفها منى وذهب ،
بقى لى منها جزؤها الأكبر ؛
وإنى لأعترف لك ، يا مريم العذراء ،
بأنى كنت فى حالة تجل ،
هذا الذى أشكرك عليه بكل خشوع ،
والحمد لعيسى الذى لم ينسنى :
لقد شاء عطفه الجميل
أن يسمنى اليوم قداسا
الراهبة الأولى :- ينبغى لقلبك - يا جيبور -
أن يركن إلى الله بلا تردد ؛

لأننا نؤكد لك
أنه أرسلنا إليك ـ نحن الاثنتان ـ
لنقول لك أن تعدى العدة
لكى تأتى دون إبطاء
فتدخلى ديرنا
وتلبسى لباسنا .

الراهبة الثانية : يريد منك أن تتركى غرور
هذا العالم لكى تتفرغى لخدمته
وأيضاً لكى تكونى أهلا
للمجد العظيم فى السماء .

جيبور : سأقول لكما قول صدق :
لا شك أن هذه كانت أمنيتى .
فهيا بنا إلى رضاء الرب ؛
ما دام عليكما أن تصحبانى إليه ؛
إنى على تمام الاستعداد
للذهاب معكما .

الراهبة الأولى: إذن هيا ، ولكن نصيحتى
أن نتابع النشيد جميعاً ونحن سائرات ،

فنمتدح ملك الملوك الحنون
وأمه التى تخلو من كل شائبة .

من حقك علينا ، أيتها العذراء ، أن نمتدحك ،
فمن أجل تخليصنا من الجحيم
قد استحال الإله بشراً بين أحشائك ،
ونجانا من الموت
الذى جلبه علينا آدم ،
حين قضم التفاحة .

سر الآلام

لأرنو جربان

حصل «أرنوجر يبان» على إجازة الجامعة، ثم على إجازة العلوم اللاهوتية ، وصار عازف الأرغن ، ومدير الترتيل فى كنيسة « نتردام باريس » ، ثم قساً لكنيسة القديس جوليان المنسى ، وقد قام حوال سنة ١٤٥٠ بتأليف (سر الآلام) من أجل (الجمعية الدرامية الباريسية لإخوان الآلام) . وهذا الأثر الضخم ـ الذى يُعَدّ فى نفس الوقت عملا دراميا وغنائياً واقعياً ، بل وهزلياً فى بعض مناظره ـ يحتوى على ٣٤٥٧٤ بيتاً و ٢٢٤ شخصية ، وينقسم إلى مقدمة وأربعة أيام (أو أربع مراحل) ، وهى :

الخلاص ، وحياة عيسى ، والآلام ، والبعث . ويستحق أرنوجر يبان أن يعد بين أعظم المؤلفين الدراميين فى الأدب الفرنسى .

المقدمة

تبدأ المخطوطة بمائتين وأربعين وثمانية أبيات يلقيها الممثل ، وفيها نرى عرضاً لخطة الخلاص العامة، ومقاصد الشاعر ، وملخصاً لليوم الأول . وبعد ذلك تحتوى (فى الأبيات من ٢٤٩ — ١٧١٧) على « مختصر لقصة

الخالق » مع تاريخ البشرية حتى موت آبائنا الأولين . وهذا الجزء من السر الذى لم يمثل فى العروض الثلاثة الأولى التى تمت فى باريس قبل سنة ١٤٥٦ - كما تشير الملاحظات التمهيدية - يذكرنا بتمثيلية آدم ، و بعد ذلك يعود الممثل ليعرض على الجمهور - فى سرعة - مضمون الأيام الأربعة (الأبيات ١٧١٨ - ١٧٤٠) .

اليوم الأول

آدم وحواء وأشعيا وحزقيال و إرميا وداود ينوحون فى الأعراف ، ويرجون بكل أمانيهم ظهور المسيح (الأبيات ١٧٤١ - ٢٠٧١)

وتناقش قضيتهم أمام الله فى الفردوس بين شخصيات (الرحمة) و (العدالة) و (الحقيقة) و (السلام) و (الحكمة) . ويتبين أنه لا يستطيع أن يرضى العدالة و يصلح خطأ الإنسان إلا ابن الإله بعد أن يتجسد ، و ينزل جبرائيل - وسط نشيد الملائكة - إلى العذراء المختارة ليحمل إليها الرسالة الإلهية (٢٠٧٢ - ٣٣٩٤) .

بعد ذلك نرى مشهد البشرى (٣٣٩٥ - ٣٦٠٤) ، ومشهد الزيارة (٣٦٠٥ - ٣٦٤٤) . ويحيط جبرائيل الإله علماً بشأن رسالته ، و تتغنى الملائكة بطيبة الإله ومجد العذراء (٣٦٤٥ - ٣٧٠٤) . وتضج

الشياطين فى الجحيم ، وتقسم على ألا تدع أسراها يخرجون من قبضتها ، ويقوم إبليس بإرسال الشيطان إلى الأرض لكى يخبره بما يجرى على سطحها (٣٧٠٥ ـ ٣٩٧٨) .

مؤتمر الشياطين [1]

إبليس : اقفزوا من الأعماق السوداء ،
من المساكن الجهنمية المظلمة ،
وأنتم تنفثون النار والكبريت ،
أيها الشياطين . اقفزوا من هوتكم
واخرجوا من مناطقكم :
آلافا ، وجيوشا
تعالوا اسمعوا قضيتى .
دعوا السلاسل والمشانق ،
وقد علق عليها المشانيق واللصوص ،
دعوا الأفران الحامية ، والأفاعى اللداغة ،

---

(١) كل هذه القطعة مكتوبة فى النص الذى نترجمه باللغة الانجليزية النرمندية دون ترجمة . « المترجم »

والتنانين التي تفوق العاصفة فى ضراوتها ؛

كفوا عن كد أذهانكم ورؤوسكم

فى إذابة تلك المعادن ؛

انسئوا لى ، هدموا لى

كل ذلك الرواق الجهنمى القبيح ،

وسارعوا إلى ـ بكل قوة ـ

لتسمعوا حديثى .

الشيطان : من الذى يثير هذه الضجة ؟

إبليس ، ملك الشياطين ،

إنك تعوى كالذئب الجائع ؛

حينما تريد الغناء أو الضحك .

إبليس : ها ! لعنة الله عليك ، أيها الشيطان !

أما عن ترانيمى وضحكاتى ،

فإنها كئيبة قبيحة ؛

وأما عن عزتى وجمالى ،

فقد أصبحا ضربا من التشويه ،

كما أصبح غنائى نحيبا ،

وضحكى غموما ،
ونورى ظلمة حالكة ،
لقد تحول مجدى إلى غيظ أليم ،
وفرحى إلى ترح لاشفاء منه ؛
لم يبق لى إلا كبريائى
التى لم تحُل ، ولم تتغير
منذ اليوم الذى خلقت فيه
هناك فى علّيين ، فى مملكة السماء الخالدة ،
دون أن يعتريها أى نقصان .

الشيطان : أما من هذه الناحية ، فإنى أصدقك جيدا ،
فلا تنتظر أن يكون لك منها خلاص ،
ولكن ليست هناك مناسبة لذلك ،
إلا إذا كان المراد مجرد التكرار .

إبليس . دق الناقوس ، ياعشتروت ،
انفخى فى الصور ـ بكل قواك ـ
حتى يخرج شياطين الداخل جميعا
إلى الخارج فورا وفى الحال . . . .

عشتروت : إبليس ، أيها الملك ، خبّرنا

عن حال دولتك ،

هاهم أولئك الشياطين الملعونون

وقد اصطفوا جميعا ليسمعوا صوتك .

إبليس : أنى لأشعر بالبهجة حين أراهم

مجتمعين فى رهط له هذا الجمال ،

ولكنها بهجة ضئيلة القيمة .

بهجة أفسدتها شدة الغضب ؛

واختلطت بالسخط المختزن

الذى لا تكاد تطيقه الروح ...

قبل أن يتقدم سير الأمور

بحيث يتم البت فيها بدونكم ،

أيها الشياطين ، اصطفوا - كلكم جميعا -

فى صورة جمهور هائل ،

وغنوا لى دورا

بلغتكم الشيطانية المروعة .

عشتروت : ستسمع غناء جميلا ،

على الفور ، ومقطوعة شائقة :
أيها الشيطان ، ستؤدى أنت النغمة القيادية ،
وسأقوم أنا ، بأداء النغمة المنخفضة ،
وسيؤدى « بلزيبوث » أعلى النغمات ،
وسيكوّن « بيريخ » معه مثنى ،
وسيقوم « سربروس » مقام ثالثهما
الذى لاينقطع ، والله يعلم كيف .

إبليس : هيا ابدأوا بلطف
ألا بد من كل هذا التكلف ؟
ابدأوا ياشياطينى الصغار ،
غردوا أنغامكم ، ورنموها ،
همهموا كاليرابيع النائمة
أو كالغربان الهرمة الساغبة .

بيريخ : ستسمع قصائد جيدة التقفية ،
وغناء مديداً أيضاً ،
هيا ، يابلزيبوث .

بلزيبوث : هيا !

سربروس : هيا !
أعتقد أنك ستسمع جمالا .

(غناء جماعى .)

الموت القاسى الخالد ،
إنه أنشودة الملعونين ؛
إنه يمسكنا جيداً فى سلسلته

الموت القاسى الخالد ،
لقد أستحققناه هكذا
ونحن إليه منساقون ؛
الموت القاسى الخالد ،
إنه أنشودة الملعونين ؛

إبليس : كفى ! إنكم تصدعون مسامعى ، أيها الأشقياء
بهذا الصياح المزعج ؛
كفوا كفوا ، وحق الشيطان ،
إن غناءكم كله نشاز .

[تعود مريم من لدى إليصابات ، وتنقضى ثلاثة أشهر ، فيبدو حملها

واضحا ويعبر يوسف عن قلقه فى حديث انفرادى ذى طابع كلاسيكى بحت (٣٩٧٩ ــ ٤١٩٦) .

قلق يوسف

إن ذهنى القلق لا يستطيع أن يحيد عن مريم ، زوجى القديسة التى، وجدتها حبلى . لست أدرى إذا كان فى الأمر شر أم لا . أيتها السيدة ذات الشهرة العالية ، أيتها العذراء المزدانة بالفضيلة ، مريم ، أيتها العاقلة جداً ، ياأحكم النساء وأشدهن تواضعا ، إنك تغرقين قلبى فى الشك . لا أدرى ماذا أستنبط مما فعلت؟! لا أدرى ماذا أقول أنا ذلك الرجل المسكين؟! مادامت قد حملت ، فلا بد أن يكون حقا أنها أثمت ؛ لأنه ليس منى : إنها لم تحفظ عهدها ، لقد فسخت الزواج . فسخت ؟ ماذا تقول ، أيها القلب الجامد ؟ إنك تلوث كائنا بلغ هذه الدرجة من القداسة . أيها الفم ، حاذر مما تقول ! أتمس شرف أعذب عذراء تعيش تحت قبة السماء ، أوفر العذارى حكمة، وأجملهن خلقا ، تلك التى لم تصدر من فمها الجميل كلمة لغو واحدة ؟ أتتهم هذا المحيا العذب الحكيم بالخطيئة ؟ إنك لكاذب ، فهذا أمر مستحيل . كاذب ؟ ما أشد غبائى حين أنظر إلى حالتها ، فأعتقد أنه ليس فى الأمر من خطيئة ! إنها حبلى ، وممن ؟ إن القانون يقرر أن هناك

جة عمرزبى ، مادام الوالد ليس شخصى .ياإلهى ! ما أفظع الأمر! هل أصدقه؟
كلا ، إنى لـكاذب ... لست أدرى . ولقد تغيبت عن هـذا المـكان
ثلاثة أشهر ، وفى نهاية الشهر الثالث ، رأيتها تقبل حبلى . أيـكون هناك
شرير غرّربها أو اغتصبها ؟ الحقيقة أنى لا أدرى ماذا أفـكر . ولـكنى فى
الحقيقة قد رأيت فيها نوعا من الـكمال العظيم يجعلنى أصر ـ ماحييت ـ على
الإيمان بأنه لم يقع منها خطأ . و بعد فهــذه هى الطريق التى أرى أنها
تجنبنى جميع المخاطر . سأحزم أمتعتى وأغادر المـكان منذ الصباح البا كر
دون أن أخطر أحدا . سأتركها وحيـــــدة ، وأرجو الله أن يحفظها
من السوء .

ويبعث الإله بالملاك جبرائيل لـكى يطمئن يوسف الذى يطالب
الصفح من مريم (٤١٩٧ — ٤٢٨٠) . ويأمر قيرينوس حاكم يهودا .
بإعلان مرسوم « أوغسطس » القاضى بإحصاء رعايا الإمبراطورية كلهم .
فيعتزم يوسف ومريم وابن عمها إلياسين الذهاب إلى بيت لحم ـ مهد
أسرتهم ـ استجابة لأوامر المرسوم (٤٢٨١ — ٤٤٦٢) . ولم يجد
المسافرون لهم مكانا يأوون إليه الا « كوخا عتيقا » حلوا فيه هم وثورهم
وحمارهم (٤٤٦٣ ـ ٤٦٣٧) .

حوار الرعاة (١٦٣٨ ـ ١٨٥٤)

ألوريس (الراعى الأول) : ـ الجو لطيف لابأس به . هذا الفصل بالنسبة للرعاة ، والحمد لله !

إيسمبرت (الراعى الثانى) . ـ إن الجو جميل مقبول بالنسبة لمن لايشتط فى الطلب .

بليون(الراعى الثالث) : ـ لن استطيع البقاء فى المنزل ، وأنا أرى هنا هذا الجو المنعش .

ألوريس : إن الجو لطيف لابأس به ، هـذا الفصل بالنسبة للرعاية ، والحمد لله !

إيسمبرت : تبًا للغنى ، وتباً للقلق ! فليست هناك حياة ـ أيا كانت ـ تعدل حياة الراعى .

بليون : بالنسبة للناس الذين يلهون على هذا النحو ، تبا للغنى ، وتبا للقلق !

رفلارت(الراعى الرابع):وأنا أيضاً ، اعتبرونى منـكم بلحيتى التى وخطها الشيب، .فإنى حين أرى لدى من الخبز ما يكفينى ، أصيح قائلا : تبا للغنى ، وتبا للقلق !

ألوريس : ليس هناك حياة ، أيا كانت ، تعدل حياة الراعى .

إيسمبرت : أهناك متعة تعدل فى عذوبتها متعة النظر إلى هذه الحقول

الجميلة ، وتلك الحملان الوديعة التي ترعى وتمرح في المرج الجميل ؟

بليون : يتكلم الناس عن الإمارات الكبيرة ، وعن امتلاك القلاع والقصور الشاهقة . فهل هناك متعة أعذب من النظر إلى تلك الحقول الجميلة ؟

رفلارت : إذا كانت مخلاتي مليئة برءوس الثوم الكبيرة المغذية ، فإني أغرد بنايي أغنية تعدل جميع السمفونيات .

ألوريس : أهناك متعة أعذب من متعة النظر إلى هذه الحقول الجميلة ، وتلك الحملان الوديعة التي ترعى وتمرح في المرعى الجميل ؟ إن الرعاة كلما شاهدوا صفاء الجو ، ابتهجو وغنوا وأولموا ، ولم يدعوا ضربا من ضروب اللهو إلا تسلوا به فيما بينهم : إنهم يزينون قبعاتهم وينظفون ملابسهم ، ويهتمون بخرافهم ، ويطلقون كلابهم غير المدربة ، ثم يدعونها إليهم من جديد . ويمضي النهار ، وحين يقبل الليل يحكمون إغلاق حظائرهم ، فإذا ما أقبلت الذئاب الجوعى تبغي الهجوم ، صدتها الكلاب .

إيسمبرت : إن الرعاة حين يحرسون نعاجهم يقضون وقتا سعيداً ، فهم

إذ يحرسون نعاجهم يلعبون بآلاتهم الموسيقية ، ويغردون أغانيهم البسيطة فى مرح وسرور خالص ، كما أن الراعيات الشابات العذاب يعرفن كيف يغنين ويقتطفن العشب العطرى والأزهار الجميلة . آه ! ما ألذ أن يعيش المرء مائة عام ، وأن يتسلى على هذا النحو ! إن الرعاة يقضون أوقاتاً سعيدة .

بليون : مادام الراعى يستحوذ على مخلاة جيدة الإغلاق ، مخلاة متينة خالية من الثقوب ، فإنه يعتبر ملكا صغيراً ؛ إذا كان لدى الراعى مخلاة متينة الأقفال، ويمكن إغلاقها من خلفها بصورة محكمة . فماذا ينقصه ؟ ماذا ؟ إن لديه قبعته الخوصية ، ومثقابه، وكيسه الذى يضع فيه مخرازه وكلابته وعصاه الحبيبة ، والصندوق الذى يحفظ فيه صبغته ، والثوب الجميل الذى يستر به جسمه ، والناى الطويل الجميل الذى يستخدمه فى تسليته ، والحذاء الجلدى المدعم من جهته الخلفية خير تدعيم . فما عليه إلا أن يمرح ويستمتع : إنه ملك صغير .

رفلارت : ومقصه وسكينه وقفازيه السميكين ذوى الأصبعين، وسفطه الذى يضع فيه الجوز، وتقويمه الخشبى ، والشحم الذى يتقبل به طبق البازلاء ، ومعطفه الشتوى ، كل هذه الأشياء أليست

ذات قيمة بالنسبة له ؟ والتزالك الضخمة ذوات الثنايا ، وما يكون لديه من نايين صفصافيين أو ثلاثة، والدفاف والنايات المختارة ، وذلك الحذاء البدائى للانزلاق على الجليد ، والمقود الذى يشبه مايرى منه فى أيدى إخوان المرح ؛لكى يقودوا به كلابهم الكبيرة . إنى لو أردت أن أصف كل مالدى الرعاة لاحتجت إلى أشهر كاملة

ألوريس : إننا هنا نترنم بأناشيدنا ، ولكنى لا أرى راعيا واحدا يفكر فى الذهاب لعمله ، والعناية بنعاجه.

إيسمبرت : لاتعجل ، ياألوريس ، إن الشمس لاتزال عالية . فإذا رأينا أن الوقت قد حان ، أستطعنا أن نسارع بالذهاب .

بليون : لنبق فى هذ المكان بعض الوقت ، دون أى قلق . فليس هناك خير منه بالنسبة لنا ، ومن العبث أن نوغل فى الصعود أكثر من ذلك . فنحن هنا نرى خرافنا ونعاجنا تجتر ومن العسير أن يضل أحدها دون أن نسارع باللحاق به .

رفلارت : دع كل هذا الآن ، وحدثنا عما تعرف من أخبار أولاً وقبل كل شىء .

ألوريس : ليس هناك من يفوقك فى معرفة الأخبار ، يارفلارت ، فجعبتك

لاتخلو من الأخبار مطلقا ؛ لأنك تجعل القديم منها جديدا قبل أن تتزود بغيره .

إيسمبرت : أما هو ، فإنه لايقل قدرة على الكذب عن أى جار من جيرانه ، مهما عظم شأنه ، وفى وسعه أن يحكى فى كل يوم من أيام الأسبوع بقدر مايستطيع أى واحد غيره فى أيام الآحاد .

رفلارت : أتريدون ـ إذن ـ أن أبدأ حديثى ؟

بليون : لاتكذب ، وكن حى الضمير .

رفلارت : أتريدون ، إذن أن أبدأ ؟

ألوريس : من العدل أن ننصت له ، مادمنا قد طلبنا منه أن يتكلم .

رفلارت : أتريدون إذن ، أن أبدأ حديثى ؟ سأقول لكم ـ دون كذب ـ : إنه حدث فى الليلة الماضية حوالى الغروب أن انطلق السيد إيزنجران [1] للبحث عن صيد كعادته ، فابتدأ بالذهاب إلى حظيرتى ، وقفز السياج ، ولو لم يصادف أنى كنت مستيقظا لأخيط جلبابى ، لكان قد ذهب بخروف سمين فوق كفله

---

(١) اسم الذئب فى « قصة الثعلب » من قصص العصور الوسطى .

دون خوف ولا وجل . وهنا أيقظت بريبه [1] قائلا : هارو! هارو ! وبذلك استخلص روبان [2] من قبضته ، لسوء حظه ، وأصبح مطلق الحرية ، ولولا ذلك لكان قد أكله .

إيسمبرت : هل فكرت طويلا لتقص علينا هذه الحكايات الجميلة ؟

بليون : إذا لم تقص علينا ماهو خير من تلك ، كنت لا تعدل عندى فص ثوم .

ألوريس : أهذا كل ما فى الأمر؟

رفلارت : لا تنبسوا بكلمة ، ستسمعون أحداثا مذهلة : بالأمس ذهبت بأكثر من ثلاثين حملا إلى بيت لحم ، لأبيعها هناك بمناسبة العيد ؛ ولاشك أن أى شخص لم يرأناسه ، فما عليه إلا أن يذهب إلى هناك ، وسيرى منهم العدد الكافى ، ولكن ماذا ؟ ألا تعرف ذلك ياإيسمبرت ؟ وهناك رأيت تختا كان يجلس على قمته أناس يلبسون ملابس من الكتان ، ويلتحفون بمعاطف جعلتهم يشبهون القردة ، وكانوا يكادون

---

(١) اسم الكلب .

(٢) اسم الخروف .

يتلاصقون فى جلستهم ، وراحوا ينشرون صحائف كبيرة ، ويستعدون للكتابة . لكتابة ماذا ؟ لاأدرى فى الحقيقة ، ومهما يكن من شىء ، فإن ذلك لا يعنينى .

إيسمبرت : اختصر .

رفلارت : لقد وصلت إلى النهاية ، أو كدت . وبينما كنت أنظر إلى أعلى ، جاءنى واحد من أولئك الذين لا أدرى من هم ، واحد من أولئك الذين يحبسون الناس .
هيا ! ساعدنى فى معرفة اسمه . . .من أولئك الذين يحملون عصيا من الفضة ، إنه . . . إنه . . .

بليون : يريد أن يقول شرطيا يسوق الناس إلى السجن .

رفلارت : لا أكثر ولا أقل ، إنك على حق . ويمكن القول بأنهم قادونى بالقوة أمام « هذه البغال » الضخمة ، وهناك سألونى ـ فى لهجة كلها استعلاء ـ : »من أين أنت؟»وأجبت:«أنا من مدينتنا ، ولدى مايكفينى من البازلاء والشحم . » فسئلت ثانية : « ماأسمك ؟» وأجبت : « رفلارت ،أهذا يعنيكم فى شىء ؟ ». قالوا:« كلا » ولكنهم ضحكوا من هذ الاسم ضحك المجانين ، وحينئذ وضعونى فى سجلاتهم ، وأطلقوا

سراحى دون شربة ماء .

ألوريس : ودون أكل ؟

رفلات : نعم ، وحياتى . وهذا أمر لايدعو إلى الضحك .

إيسمبرت : منذ ثمانية أيام سمعت أن السيد لاأدرى من . . . ماسمه ؟

بليون : الإمبراطور .

إيسمبرت : نعم ، إمبراطور روما . لقد قيل لى : إنه أمر أن يكتب فى أوراقه اسم كل رجل . فهل هو – ياترى – غبى إلى هذا الحد ؟

ألوريس : أن يكتب ؟ ولكن بأية مناسبة ؟ أيكون ذلك من أجل إشعال الحرب ؟

رفلارت : ربما ، أو لعله من أجل فرض ضريبة . لاتخف ! فلا شك أن الأمر سيكون ثقيلا علينا !

بليون : لا أدرى : فليكن مايكون ! إذا كان الناس سيقبلون من أقطار عديدة ، فإن ذلك سيسهل بيع خرافنا فى بيت لحم . وفى غيرها .

إيسمبرت : لقد آن الأوان لكى نذهب ونرتدى ملابسنا ، لأنه يجب علينا – أثناء الليل – أن نحرس القطيع ، كل من ناحيته .

ألوريس : أنا على تمام الاستعداد .

رفلارت : وأنا أيضا مستعد للسهر حتى الصباح .

بليون : ولما كنت أنا قد أحضرت تزلكى وقفازى والأزرار الكبيرة ، فإنى لن أخشى شيئا حين يتجمد من البرد كل شىء، حتى الضفادع.

إيسمبرت : إننا على خير مايرام ؛ كل منا فى مكانه ، و إذا رأى أحدنا الذئب ، فلينادِ !

ألوريس : لوجاء لكان فى مجيئه مسلاة لنا، فليحاول كل منا ألا يؤخذ على غرة !

وحينئذ يعلن الميلاد (٤٨٦٥ ـ ٤٩٩٩) ويتبع ذلك عبادة الملائكة (٥٠٠٠ — ٥٠٤٣) ، ثم منظر غنائى يقدم فيه يوسف ومريم شكرهما لله فى صورة نشيد يتبادلان غناءه بينهما (٥٠٤٤ — ٥١٦٢) ، ويحمل الملائكة النبأ السعيد إلى الرعاة ، كما يحمله النجم إلى الملائكة ، و يذهب هؤلاء وأولئك لتحية الملاك الذى ولد . ولكن هيرود يسمع هو الآخر بالنبأ الذى يتهدده ، وذلك عن طريق السحرة الذين سعوا إليه (٥١٦٣ — ٦٧٤٩) وأخيرا نرى رحيل الملوك السحرة الأربعة الذين لا يرى المؤلف بأسا فى أن

يجعلهم يشربون (٦٨٤٧ — ٧٦٥٠) ، ثم المثول فى المعبد (٦٨٤٨ — ٧١٩٨)، ثم الفرار إلى مصر حيث تسقط الأصنام لدى رؤية الطفل(٧١٩٩ـ ٧٥١٥) ، ومذبحة البرآء(٧٥١٦ ــ ٧٨٥١) ، وانتحار هيرود الذى تحمله الشياطين إلى الجحيم(٧٨٥٢ - ٧٩٩٥) ، والعودة إلى فلسطين(٧٩٩٦ ـ ٨٠٣١)، والنقاش بين عيسى والفقهاء حيث ينتهز المؤلف الفرصة ليعرض مواهبه باعتباره رجل دين ،ولكن من حسن الحظ أن هذا النقاش لا يلبث أن ينقطع عن طريق إيراد مشهد أكثر منه درامية ، وهو مشهد القلق الذى يعترى مريم و يوسف فى بحثهما عن عيسى (٨٠٣٢ — ٩٩٣٦) . و يختم المؤلف اليوم الأول بتلخيص ماتقدم عرضه ، ودعوة الحضور إلى المجىء فى اليوم التالى لمتابعة المشاهدة (٩٩٣٧ ـ ٩٩٧٧) .

اليوم الثانى

تشتمل المقدمة على ملخص جديد لليوم الأول (٩٩٧٨ـ ١٠٠٤٣). ثم يجىء يوحنا المعمدان ـ بدعوة من الممثل ـ فيلقى عظة فى موضوع « مارسوا التوبة » (١٠٠٤٤ ـ ١٠٢٠٤) . و بعد ذلك يجيب اليهود الذين جاءوا يسألون عن رسالته (١٠٢٠٥ ـ ١٠٢٨١) ، ويعمد عيسى (١٠٢٨٢ ـ ١٠٤٤٢) الذى يذهب إلى الصحراء حيث يحاول الشيطان عبثا أن يغريه

(١٠٤٤٣ — ١٠٧٣٢) . ويسجن يوحنا المعمدان بأمر هيرود الذى كان يوحنا قد جاء إليه يؤنبه على سوء سلوكه (١٠٧٣٣ ـ ١٠٨٥٠) . ويتبع ذلك اهتداء الحواريين (١٠٨٥١ ـ ١١١٢٣) ، وأفراح كنة(١١١٢٤ـ ١١٣٣٤) ، وطرد التجار من المعبد (١١٣٣٥ ـ ١١٤٣١) ، واعتناق نيقوديموس الدين الجديد(١١٤٣٢ـ١١٥٤١) ، ومقابلة السامرية(١١٥٤٢ـ ١١٧٠٠) ، و بعث فتاة وطفل من الموت (١١٧٠١ ـ ١١٩٨٤) ، وقطع رأس يوحنا المعمدان(١١٩٨٥ـ١٢٢٢٨) ، وشفاء الكنعانية (١٢٢٢٩ ـ ١٢٣٦٠) ، والمشلول (١٢٣٦١ـ ١٢٥٧٦) ،وموعظة الجبل(١٢٥٧٧ ـ ١٢٨٢٨) ، ومضاعفة الخبز (١٢٨٢٩ـ١٣٠٢٢) ، تغير هيئة المسيح فوق الجبل (١٣٠٢٣ ـ ١٣٣٥٢) ، مؤامرة المنافقين ، وحادث المرأة الزانية (١٣٣٥٣ـ١٣٧٥٦) ، الغداء فى بيت سمعان ،وحكاية المجدلية(١٣٧٥٧ ـ ١٤٠٧٠) ، و إبراء الأكمه (١٤٠٧١ ـ ١٤٦٧٧) ، و إحياء العازر (١٤٦٧٧ ـ ١٥٠٩٩) .

إحياء لازار (العازر)

بروتومون : مرثا ، سيدتى المهيبة ،

إنى أرى عيسى مقبلا إلى هنا ،

ومعه جميع حوارييه :
فهلا خففت للقائه ،
فإن هذا أمر يعتبر دائما
علامة على عظيم الحب .

مارثا : سأذهب إذن دون انتظار ؛
لأنى أتوق إلى شخصه كثيرا .
عيسى ، سيدى الأكرم ،
إنى أعتقد بكل قلبى
أنك لو كنت هنا ،
لما مات أخى ؛
ولكن هناك أمراً يطمئننى ،
وهو أنى أعرف جيدا
أن كل ما تريد الحصول عليه
من الله تجاب إليه .

عيسى : سيبعث أخوك حيا ،
يا مارثا ، لا يكن عندك فى ذلك ريب .

مارثا : سيدى ، إن الرأى الشائع

أنه فى اليوم الآخر
سيبعث الجميع حقيقة ،
ولذلك أعتقد دون ريب
أنه لابد أن يبعث ؛
ولـكن ذلك لا يكفينى فى شىء .

عيسى : يجب أن تؤمنى بأنى الحياة
والبعث الحقيقى ؛
فكل من آمن بى دون تردد ،
ومات موتا جسمانيا ،
لم يخش مطلقا خطر الموت ،
الموت الدائم الأبدى .
فهل أنت تؤمنين بما سمعت ؟

مارثا : نعم ، يا مولاى الحبيب !
أو من به بكل قلبى
و بأنك المسيح ، ابن الله
الذى جئت إلى العالم من أجلنا .
(وهنا تعود إلى المذبح ، وتنادى مريم ، أختها .)
مجدلية ، يا أختى ، انهضى :

إنه عيسى ، سيدنا ، قد جاء ،

فهيا إليه .

المجدلية : مرحبا !

ياله من نبى مفعم بالفضيلة !

إننى فى غاية التطلع

للذهاب لرؤيته من فورى .

توبال : إلى أين تذهب مريم الآن

وقد انطلقت بهذه السرعة ؟

جـدعون : إنها ذاهبة إلى قبر

لعزار – على ما أعتقد –

لـكى تبكى أخاها

وتنثر عليه كل دموعها .

روبين : أن تلك السيدة الطيبة حزينة

مما رماها به القدر ،

و إذا لم ترزق شيئا من العزاء ،

فإن حزنها سيكون قاتلا .

سمعان (الأبرص): أيها السادة الأجلاء ، هيا بنا إليها ،

لـكى نبعد عنها اليأس .

ايرون : سنحاول أن نعزيها ،

أتوسل إليـكم أن نسارع باتباعه ،

لأن القلب المفعم بالحزن

تصلحه الصحبة الطيبة .

(هنا ترتمى المجدلية على قدمى عيسى)

المجدلية : ها ! أيها السيد المفعم باللطف ،

كيف أقصيتنا ؟

كيف أبطأت عنا إلى هذا الحد ؟

كيف تتركنا هكذا ؟

لو أنك كنت هنا

لما مات أخى ؛

لأنك كنت عالجته جيداً

بمجرد كلمة منك .

إن حزنى عليه يـكاد يصيبنى بالجنون :

كلما مرت ذكراه بخاطرى .

عيسى : لا أستطيع منع نفس من البكاء

ولا كيانى نفسه من الارتجاف
حينما أرى كل هؤلاء الرجال والنساء
يظهرون كل هذا الحزن على لعزار .

القديس برتلمى: إنهم جزعون عليه إلى حد يثير الإشفاق ،
وكل أصدقائه الأقربين .
يحملون عليه الحداد .

عيسى : أين وضعتموه ؟
أخبرونى ، فإنى أريد معرفة ذلك .

مؤاب : أيها المولى الحبيب ، هيا لتراه :
ها هو التابوت الذى يرقد فيه

عيسى : إن قلبى يرتجف إشفاقا ،
ودموعى تنهمر من عينى
دليلا على هذا الحزن :
هذا ما تقضى به الصداقة .

نبتالين : انظروا إلى ذلك الوجه الحليم ،
وجه عيسى وقد بللته الدموع .

مؤاب : إن هذه العبارات تدل

على أنه كان يحبه حبا خالصا .

توبال : لست أفهم معنى هذا الألم :
إن عيسى ، وقد أعاد البصر
إلى ذلك الذى قد ولد أعمى ،
ألم يكن فى وسعه أن يفعل مثل ذلك
فيحمى صديقه من الموت ،
ما دام يحبه إلى هذا الحد ؟

عيسى : اكشفوا لى هذا القبر :
ارفعوا الحجر من فوقه .

مارثا : ها ! سيدى ، إن ذلك لا بد أن يصيبهم بخيبة الأمل :
فهو يضطجع فيه منذ أربعة أيام ،
ومن ثم لا بد أن يكون بادى النتن ،
حتى لا يمكن لنفس أن تطيق ريحه .

عيسى : لقد أخبرتك منذ وقت طويل
أنك إن اعتقدت اعتقادا كاملا ،
أدركت مجد الله ،
وتجلى أمامك هذا المجد .

أبكوت : هيا ، إذن ، ليرفع الحجر ،
وليقدم كل منكم يد العون ، أيها السادة .

كليوس : مهما كانت الرائحة المنبعثة ،
لنرفع هذا الحجر ،
و بعد ذلك سنرى
مبلغ مالدى عيسى من قدرة .
هيا ! ارفعوا !

توبال : ولكن هيا ! ارفعوا !
إنكم لا تفعلون أكثر من الثرثرة .

أبكوت : إنكم تضايقوننا .
بعراككم .

جدعون : أهو هذا ؟
هيا ! ارفعوا !

كليوس : ولكن هيا ارفعوا !
هيا ، بحق الله ، هيا !
لقد بدأ فى النزول .

أبكوت : ليست هذه طريقة الرفع .

هيا ! ارفعوا !

جدعون : هيا ارفعوه !

إنكم لا تفعلون غير الثرثرة .

كليوس : إنكم تضايقوننا بعراككم .

هنا ، إلىّ ! قليلا من المجهود ... هيا ! . .

وليبقَ – حيث هو –

كل من يخشى على نفسه القليل من الأذى .

توبال : انظروا ، إن التابوت مفتوح :

فافعل ما يحلو لك ، يا سيدى .

عيسى : أبى الذى فى السماء ، إنى صادق الرغبة

فى أن أتوسل إليك ، كما تعرف ،

لكى تستجيب لندائى ؛

ومع ذلك ، فإنى أعلم علم اليقين

أنك لا ترد لى أبداً أمراً

وأنك تسمع رجائى فى كل ما أريد ؛

إنى أريد أن أدعوك

من أجل الحاضرين الذين يروننى ،

لـكى يؤمنوا بـكل قواهم
بأنك بعثت بى إلى هذا العالم .
اخرج ، يالعزار ، أصدقائى الأجلاء ،
(بصوت عال)
إنى أريد ذلك وآمرك به
(فترة صمت)
(هنا العزار بكفنه)
لعزار : ما أعظم قدرتك ،
وما أسمى أفعالك ،
بوركت يابن الإله المجيد
الذى فى قبضته السموات والأرض !
حمدا لك وشكرا
على هذه المنة السامية
التى خصتنى بها طيبتك العذبة
حين أعدتنى إلى الحياة .
عيسى : خلصوه دون انتظار،
ودعوه يذهب لحال سبيله .
يهيج الشياطين و يموجون بعد هذا البعث ، و يعتزم الشيطان كبيرهم

ـ الذى يحس أن سلطانه يفر منه ـ أن يغرى أمراء اليهود لكى يعدموا عيسى (١٥١٠٠ ـ ١٥٢٠٥) . فيجتمع هؤلاء الأمراء لدى قيافا فى الوقت الذى تتوسل فيه العذراء إلى عيسى لكى يفر (١٥٢٠٦ ـ ١٥٧٤٣) . ويأوى عيسى إلى بيت لحم لدى لعزار وأخته (١٥٧٤٤ ـ ١٥٩٤٢) ويتلو ذلك الغداء لدى سمعان حيث يوطد يهوذا العزم ـ بعد أن أزرى به عيسى أمام المجدلية ـ على خيانته (١٥٩٤٣ ـ ١٦٠٢٦) ، وعودة النصر إلى بيت المقدس (١٦٠٤٧ ـ ١٦٣٨٢) .

وتعبر السيدة العذراء من جديد عن شكاياتها التى تنتهى بالخضوع لإرادة ابنها (١٦٣٨٣ ـ ١٦٦٣٨) . ويبشر عيسى بالمعبد فى حضرة قيافا وحنان اللذين يسعيان إلى هلاكه بأسئلتهما الخبيثة (١٦٦٣٩ ـ ١٧٢٨٦) . وفى أثناء عودة عيسى إلى بيت عنيا (١٧٢٨٧ ـ ١٧٣٢٢) يعقد الشياطين مؤتمرا، ويخون يهوذا سيده تحت إغراء الشيطان (١٧٣٢٣ ـ ١٧٥٩٨) وبعد ذلك يتوالى العشاء الأخير (١٧٥٩٩ ـ ١٨٥٣٢) ، وإعدادات القبض (١٨٥٣٣ ـ ١٨٦٧٢) ، والأسى فى بستان الزيتون (١٨٦٧٣ ـ ١٩٠١٥) ، والقبض على عيسى ، وفرار الحواريين ١٩٠١٦ ـ ١٩٣٣٩) ، واستجواب عيسى على يد حنان ، وإنكار بطرس (١٩٣٤٠ ـ ١٩٧١٩) . وأخيرا نرانا أمام مشهد مؤثر طنان حيث نشهد عيسى صلمع

يعانى إهانات حراسه ، « الشرطيين » رولارت ودنتارت وجاديفر . ويختم المؤلف اليوم الثانى بدعوة المتفرجين إلى العودة فى اليوم التالى .

اليوم الثالث

مقدمة (١٩٩٤٧ ـ ٢٠١٤٤)

سنواصل الكلام فى موضوعنا الطيب المفيد لجميع القلوب العامرة بالتقوى ، ولذا سنعالج ظروف الآلام الشديدة القاسية التى كانت ثمنـــا لخلاصنا . ويجب علينا ـ من أجل خلاصنا ـ أن يعمد كل منا ، البداية ، إلى تحيته بخشوع ، وأن نسارع إلى القول بكل خضوع : أحييا يامريم Ave Maria .

وبعد أن تنتهى هذه التحية الطيبة المباركة ، أتوسل إليكم بكل تواضع ـ أيها السادة ـ فى أن تلوذوا بالصمت ، وأن تعدوا نفوسكم لتصور الأسى والانعطاف والحب الكامل التى تقودنا إليها هذه الآلام وتوجد طبيعتنا البشرية ؛ وفكروا فى أن من يبغى التعلم من هذا العمل يجنى منه ثمارا عظيمة ، وأنه لايوجد فى هذا العالم تاريخ يعدله فى الخصب أو الإثمار ، أو يساويه فى ارشاد القلب إلى الخير الذى يجب عليه أن يتجه إليه . إن من يحسن الإصغاء

إليه، و يحيد فهمه لايتأتى له مطلقا أن يريد عمل الشر ، بل يعتبر أن كل متعة دنيوية متعة سيئة خداعة زائلة ، ولا توجد خصومة بالنسبة لديه إلا احتملها بصبر ، مهما كانت شدتها ؛ لأنه إذا تصور الكارثة التى حلت به أدركه القنوط ، ولكنه حين يفكر أن ابن الله السعيد قد تألم كثيراً ، وعانى كثيرا من أجل تطهيرنا من الأدران ، يدرك أن مايعانى هو منه لايعتبر شيئا بالنسبة للحمل الذى أراد عيسى أن يضطلع به من أجل الإنسان .

وهكذا يراه وقد ضبط إرادته تبعا لهذه المرآة التى يجب على كل قلب أن ينظر فيها برفق لكى يرق فيها آلامه ، وقد آلينا على أنفسنا ـ لكى نكون متواضعين فى انتهاج هذا المسلك ـ أن نضع أمام أبصاركم هذه المرآة السماوية على خير وجه تجود به الطاقة ، وبصورة محسوسة ، وذلك تبعا للشخصيات . فانظروا جيدا تصبحوا من الحكماء ؛ إن كل إنسان يلمح فيها صورته ، ومن نظر إلى نفسه جيدا ، رأى نفسه جيدا . وفقنا الله فى النظر فيها لكى نربح عن طريقها رؤية الجوهر الإلهى الخالد الذى لانهاية لحكمه بعد رؤية هذه الحياة الفانية (الأبيات ١٩٩٤٧ — ٢٠٠٠٥) ،

(وقد رأينا أن نستعيض عن تحليل هذا اليوم الثالث بترجمة الملخص الذى تعرضه مقدمة اليوم الرابع (٢٧٤٩٥ ـ ٢٧٥٦٦) مع الإشارة إلى

الأبيات بين أقواس من طبعة باريس ـ رينو ، وذلك تمشيا مع الخطة التى سرنا عليها حتى الآن) .

لقد بدأنا ـ على مايبدو لى ـ بأن بينا كيف أن حنان ، ذلك الكلب الغدار ، قد عامل عيسى الرقيق بغلظة وفظاظة طوال الليل دون أن يترك له لحظة هدوء واحدة (٢٠١٤٥ ـــ ٢٠٢٣٣) ، وكيف أنه ـ لكى يصل إلى أغراضه ـ قد قاده فى مطلع النهار لدى قيافا (٢٠٢٣٤ ـــ ٢٠٣٢٨) . وقد ترك هنالك حيث تجددت آلامه ، لأنه استجوب وسخر منه وضرب وأهين ، وتغطى وجهه الجميل بالبصاق ، واتهم بشهادة الزور ، وفى النهاية أرسل أمام بيلاتوس لكى يعدم تحت أشد أنواع القسر (٢٠٣٢٩ ـ ٢١١١٩) . وقد رأيتم بعد ذلك ندم يهوذا الذى أساء التصرف ، حينما شنق نفسه من شدة القنوط (٢١١٢١ ـ ٢١١٨١ و ـ ٢١٦٠٤ ـ ٢٢١٧٦) . ثم استطعتم أن تروا كيف أن بيلاتوس قد أجل موت المبارك عيسى إلى أمد بعيد رغم صياح اليهود أو اتهاماتهم ، أولئك الذين لم يكفوا عن المطالبة بموته (٢١١٨٢ ـ ٢١٦٠٣ ؛ ٢٢١٧٧ ـ ٢٢٧١٧) . بعد ذلك أمر بيلاتوس ثلاثة أو أربعة من عتاة الجنود الأشرار بأن يضربوه إرضاء لليهود ، ولكن لم يكن ذلك إلا ليزيد من صخبهم . ولكنكم كنتم قد رأيتم قبل ذلك

كيف أن الصلح قد تم بين بيلاتوس وهيرود على يد عيسى (٢٢٦١٨ ـ ٢٣٢٦٩) . ورأيتم أيضا خوف زوجة بيلاتوس وقلقهامن أن يصدرزوجها ذلك الحكم الذى انفطر له قلباهما فيما بعد (٢٣٢٧٠-٢٣٥٢٩) . و بعد كل هذه التفاصيل تمسك اليهود كل التمسك بمعارضتهم ، وأصدروا من ضروب التهديد ماجعل بيلاتوس يصدر حكمه عليه ، ولكنه قد اضطر اضطرارا إلى هذا المسلك ، وذلك لكى يتخلص من الموقف (٢٣٥٣٠ ـ ٢٣٦٥٥) . ثم رأيتموه وهو يحمل الصليب و يساق إلى الموت بين لصين حقيرين(٢٣٦٥٦ ـ ٢٣٩٩٥) . وسمعتم النساء الصالحات يشكون و يتوجعن (٢٣٩٩٦ ـ ٢٤١٠٩)، وسمعتم أمه الوديعة تنفث أساها ، وأصدقاءه ينتحبون أشد انتحاب على فقدان سيدهم الذى تولهت قلوبهم عليه (٢٤١١٠-٢٤٤٤٩) .وحينئذ أرقد ابن الله المجيد على الصليب بصورة محزنة حيث عانى السخرية المرة، والعار الفادح ، والتهكم الكالح ، ثم الموت الأليم فى نهاية الأمر تحت بصر أمه الوديعة العزيزة (٢٤٤٥٠-٢٦٧٠٧) ، ورأيتم الإنزال من فوق الصليب ، وجسده حين قام يوسف ونيقوميدوس بدفنه ، وقد بدا عليهما التأثر الحقيقى . (٢٦٧٠٨-٢٧٢٣٧) .وحينئذ قام اليهود بإغلاق القبر عليه بالملاط، وأقاموا الحرس من حوله خوفا من أن يقبل أصدقاؤه المجتمعون ويخطفونه فى ظلام الليل ، وقد حاول كل جندى أن يقوم بدوره بكل صرامة ، وهنا توقف تمثيلنا (٢٧٢٣٨ ـ ١٧٤٥١) .

يهوذا : ها هو ذا سيدى يساق إلى هنا ، و يعامل معاملة زرية؛ أعتقد أن قضيته ستنتهى بصورة يرثى لها ، وأنها ستتمخض عن موته: ليس هناك من علاج لموقفه . آه ، أيها القاتل الشرير ، ماذا فعلت؟ أيها القلب الغادر ، ماذا دبرت ؟ على من جنيت ؟ لقد ارتكبت جريمة كبيرة لن يغفر لك ذنبها ، ولن يستطيع البرىء منها خلاصا . لقد ارتكبت أشنع خطيئة يمكن لعين أن تتأملها، ارتكبتها بقلبي الشرير الرهيب الذى لم يرد قط أن يتصور الخير. لقد أوقعت البرىء العادل المسالم بالاحتيال والخديعة . ليس فى الإمكان - فيما أعتقد - أن أنال الصفح . عيسى ، أيها الرجل القديس العادل المتسامح الذى اجتمعت فيه كل ضروب الخير ، لقد كنت فيما مضى من قطيعك ، وأخذتنى معك ، أما الآن فقد باعك قلبي الشرير الغافل بمبلغ تافه من المال ، وهذه غلطة كبرى. أيها المال الشرير الملعون ، أفى وسع إنسان أن يفيك حقك من اللعنة ، وأنت سبب الحزن والغضب ، وفيك كل ما يدعو إلى اللعنة ؟ ملعون عبد السوء الذى استخرجك من الأرض ، لأنك أنت سبب ما انقض على من ألم لن يفارقنى . وأنت ياسيدى

المذهب الحق ، لقد كنت من رجال مدرستك فيما مضى :والطاعة العليا ليست مما يصح النفور منه ، ولقد أسأت استعمال ذلك ، فلست أهـلا له ؛ إذ أنى بخيانتى الإجرامية قد انفصلت عنه ، وأصبحت حزينا كسيف البال . آه ! أيتها القبلة المغرضة الحارة . أنت التى كنت أشد إحراقا من قضيب الحديد الملتهب، أنت التى تشعلين قلوب البشر وتسعرينها فى شرر الجحيم ، بأى حماس استوليت على إرادتى لتقلبيها ؟ دفعتنى إلى حمى الجحيم لأظل فيه إلى أبد الآبدين . إن الرعب يستولى على من امتلا كك أيها المال الخداع الحقير : لقد دفعتنى إلى ارتـكاب عمل شيطانى لن أبرأ من تبعته ، لذلك لأردنك إلى من أخذتك منهم ، إلى أولئك الذين أعطونى أدوات ضياعى .

(يهوذا يقذف بالمال إلى اليهود)

أيها السادة ، خذوا مالـكم ، لقد أثمت ، واأسفاه ! لقـد أثمت وارتـكبت جريمة كبرى هى سبب الخطر المحدق بى .

حناق : وما شأننا؟

قيافا . ما شأننا ؟ إذا كنت قد ارتـكبت غلطة ، بل حماقة ، فعليك أن ـــ

تتجرعها . إن فعلتك لاتعود إلا إليك ، فتجرعها ، هذا لايعنينى
وليس لنا أن نهتم بك .

يهوذا : آه ! أيها الناس سيئو النية ، لقد ألقيت بين أيديكم بأزكى دم
رآه البشر ، و إذا كان لابد لى أن أتجرع الموت من أجله ؛
فهذه غلطتى .

حنان : نرجو لك الخير ، خلص نفسك بأحسن ماتستطيع ، فليس لك
لدينا من عزاء غير ذلك ؛ وإذا كنت قد عملت خيرا ، فمن
حسن حظك ، أما إذا كنت قد عملت شرا ؛ فليكن الشر
من نصيبك ، ولتبؤ بالعار .

يهوذا : وأسفاه ! ياله من جواب قاس ! إن أولئك الذين عملت على
إرضائهم مبتهجون لحزنى ، ولا يهتمون بآلامى . هذه هى نهاية
الخيانة ؛ إذا سقط الخائن ضحك من شقوته كل الناس ؛ وخيانتى
ستنتهى شر نهاية ، وسينتهى بى الأمر إلى الوقوع فى شر حال.
سأغادر هذا المكان ؛ لأنى أشعر فيه بنوع من الملل جدير
بصدع قلبى حتى الانفجار إذا استمررت فى البقاء هنا . سأذهب
للبحث عن مرعى فى مكان آخر .

- لقد سئمت روحى الحياة ، وراح جسمى ينوح عليها بأكمله حتى لم

يعد لها محيص عن التخاص منه ، وأصبحت تبحث عن وسائل هذا التخاص . إن تعاملها الإنسانى جدا الذى كان مشربا بالحب فيما مضى، تحول الآن إلى تمرد و بكاء ونحيب ، ذلك أن الروح قد أبغضت جسمها كما أبغض الجسم الروح ، وهما الآن متفقان على الفراق بصورة قبيحة زرية وسط الدموع والخزى ، و بين ضروب العار . ولم يبق الآن إلا العثور على من يقوم بالتفريق بينهما ، ولو وجدت روحى من يساعدها على ذلك لكانت قد رحلت . فأين ستبحثين ، ياروحى ؟ ليس فى وسعك إلا أن تنادى كل شياطين الجحيم الملعونين ، أعداء بنى آدم ؛ لأنك إن لجأت إليهم ، فلا شك أنهم سيأتون لنجدتك . ليس أمامك إلا أن تستدعيهم بتكرار النداء ، وهذه هى الصيغة : أيهـــا القطيع المروع الكريه ، أيتها الشياطين المحبوسة فى قاع الهاوية ، أيتها الأرواح الخداعة المحرومة من كل مجد ، أيها الجنس الملعون الحقير المحكوم عليه بالعقاب الأبدى الذى لانهاية له بالنسبة لهم ، تعـالوا ، انطلقوا ! تعالوا ، أيها الشياطين امثلوا أمامى ، أقبلوا مساعدة عبدكم الذى يناديكم و يدعوكم بأعلى صراخه ! تعالوا لتقتلوا مادته الفانية ، لتحطموها وتبددوها ، أو على الأقل ، لكى تقدموا لى نصيحة تساعدنى على التخلص منها .

أبليس : — أيها الشياطين ، أنصتوا : سألقى عليكم خطابا رضيا في بضع كلمات . لقد سمعت — على ما يبدو لى — صوت عبدنا يهودا الشرير الخائن الذى راح فى غمرة الروع الذى يرعى بدنه يدعو إليه الموت بصوت عال ، ولا أحد يجيبه . فأخذ ينادينا الواحد تلو الآخر . ونحن لسنا من البعد عنه بدرجة تمنعنا من أن نخف لمعونته ، يجب أن نعينه بقدر ما نستطيع . أيها القنوط ، إنك ابنى ونسلى الحبيب . استجب لعبدى الذى يدعونا جميعا بكل قواه ، امنحه ما ينبغى له ، بالطريقة التى تعرفها ، أنت يا من اعتدت أن تجلبهم هكذا قطعانا .

القنوط : — أبى إبليس ، إذ لم أنجح فى ذلك ، فإنى أرضى بفقدان مكانى .

(فترة صمت)

القنوط : — أيها الشرير ، ماذا تريد منى أن أفعل ، إلى أى شاطىء تريد أن ترسو ؟

يهوذا : — لا أدرى : إن عينى لم تعودا تجرؤان على النظر إلى السماء .

القنوط : إذا أردت أن تسأل عن اسمى ، فإنك ستعرفه من فورك .

يهوذا : من أين أقبلت ؟

القنوط : من أعمق أعماق الجحيم

يهوذا : ما اسمك ؟

القنوط : القنوط ؟!.

يهوذا : يا لرهبة الانتقام ، يا لشناعة الخطر . اقترب ، وأنجدنى ، إذا كان في مقدور الموت أن يخفف آلامى .

القنوط : نعم ، على أحسن ما يرام .

يهوذا : تقدم إذن ، وطالب بأيامى اللعينة .

القنوط : اطمئن . فإنى على استعداد لاختزال عذابك .

يهوذا : قل لى ، أيها القنوط ، قل لى ، أيها الوحش الضارى : أيبدو لك أن آلامى تبلغ من القوة بحيث تغمر قلبى فى هذه المرارة ؟

القنوط : من اليسير عليك أن تدرك أنك لن تستطيع الحصول على غفران لخطيئتك .

يهوذا : وا أسفاه ! إن سيدى طيب إلى أقصى حد ، وهو جد ميال إلى العفو ! فلو ذهبت إليه أطلب الغفران ، ألا يعفو عنى ؟

القنوط : كلا ، لأن الذى يدس السم ، لا يلقى على فعلته جزاء غير الموت.

يهوذا : لم أسمعه يتكلم قط إلا عن العفو ، العفو . وهذه علامة على أنه يحب البذل .

القنوط : من المستحيل عليه أن يصفح عنك . ليس لخائن أى حق فى الصفح .

يهوذا : وا أسفاه ! هذا حق ، لقد خنته وعصيت أمره ، ولكنه معدن الشفقة .

القنوط : إنه يبغضك بغضا يجعلك لا تجرؤ على المثول بين يديه خجلا .

يهوذا : أفهم من كلامك أنه لن يستطيع الصفح عنى مطلقا ، مع أنه يستحوذ على قدرة إلهية .

القنوط : أنا أعترف بأنه يستطيع ذلك ، ولكنه لن يقبله .

يهوذا : ولماذا ؟

القنوط : لأنك لست له أهلا .

يهوذا : أما أنا ، فإنى أهل لذلك ، وفى وسعى أن أدافع عن رأيى ؛ لأنه كثيرا ما ذكر أنه إنما جاء من أجل الآثمين ؛ فإذا كان قد نزل من أجل الآثمين وعرف أنى أثمت ، وما دام قد بسط غفرانه على الجميع ، فلا بد أن أنال ـ أنا أيضا ـ هذا الغفران ، وليس فى مقدوره أن يفعل غير ذلك .

القنوط : سأفترض جدلا وجاهة حجتك ، ولكن هناك فرقاً بين الخطايا . بعضها صغير و بعضها كبير ، وليس منها ماهو أكبر

من خطيئتك ، لأنها تمس شخصه بصورة مباشرة . ومن ثم إذا كان يصنع الخير للآخرين ، فإن ذلك لا يغير شيئا من حالتك .

يهوذا : إذا اتجهت نفسى نحو العذراء الوديعة ، مريم ، وشرحت لها ما يعتريها من آلام ، فإنى أعتقد ـ على العكس من ذلك ـ أنها تحصل لى على عفو ابنها ، لأنها أمه وحبيبته ، وما تطلبه الأم لن يرفضه الابن .

القنوط : لو فعلت ذلك لكانت هذه أكبر حماقة تستطيع ارتكابها لأنك أسأت معاملة الابن والأم . وجرح الأم لا يزال ينزف دما ، فإذا توسلت إليها ألف مرة ، ما أرضيتها ؛ لأن الجرح الذى يصيب جسم الابن يحسه قلب الأم .

يهوذا : لا رأى إذن إلا أن أتجرع غصص الموت ، ولكنى ـ مع ذلك ـ قد اعترفت بذنبى حين قلت لقد أخطأت ، وبعد ذلك قمت بما يرضى حين رددت النقود ، ثم شعرت بندم كاد ينفجر له قلبى ؟

القنوط : لقد أدليت بهذا الاعتراف دون طهارة الطوية ، ورددت المال حقا ولكن ليس إلى الشخص المعتدى عليه ، وقد أجتهدت فى

الشعور بالندم ، ولـكن ذلك لم يـكن إلا نتيجة لعارك المركز . لذلك كان كل ماقلته هباء فى هباء ، ولا ثمرة له .

يهوذا : هل أصبحت روحى – إذن – من نصيب الشيطان،ومقضيا علىا بالخسران !

القنوط : بالضرورة .

يهوذا : مقضى على بالهاوية الأبدية ؟أليس من وسيلة لإصلاح ذلك أيها السعار الوحيد الرهيب المؤبد ؟ أيها السعار الوحيد الذى يفوق فى جنونه ذلك السعار الذى يعذبنى، أيهاالموت ، أيها الموت ،لماذا تتركنى معلقا بين يديك ؟ هيا ، عجل بضربى بسهمك ، لقد تبت والقنوط يحرقنى على نار بطيئة .

القنوط : ليس له أن يضربك بسهمه الآن ؛ رتب أمورك ؛ ثم اذهب واشنق نفسك : وهذا حبل احتفظت به من أجلك .

يهوذ : يالتعاسى ! أموت هكذا مشنوقا بحبل دون أمل فى أى عزاء؟! يالليأس ؛ وأسفاه ؟ هذا هو الفخ الذى يريدالموت أن يوقعنى فيه . إن الآلام بجميع صورها تبحث عنى جماعة.إنك لمذنب أيها الطمع الذى اخترت لى ، وفتحت أمامى تلك الطرق التى

أعاني فى نهايتها كل هذا التمزق. وا أسفاه ! ماذا يجب أن أفعل؟
أينبغي لى أن أقتل نفسى ؟ أهذا الموت ضرورى لى ؟ أأنت
عدوى ، أيتها الشفقة التى كان ينبغى لها أن تعزبنى
قبل موتى ؟

القنوط : إن الصياح وطلب الرحمة لاجدوى لهما : اذهب واقتل
نفسك . يجب أن تفعل ذلك طوعا وعن طيب خاطر ، وأن
تلوذ بالصمت .

يهوذا : كيف كيف ؟

القنوط : لاتقلق خاطرك ، سأريك الوسائل انظر إلى جعبتى ،
ولاحظ مقدار مامعى من عدد تساعدنى فى مهنتى . معى
مقصى وسكينى الكبير ، وليس هناك آلة من آلاتى إلا وهى
جيدة وجميلة وقاطعة ، ومن أحسن الأصناف ، وصالحة لقطع
الرقبة بضربة واحدة . وإذا أردت خناجرا أو حرابا ، فلدى
منها أصناف عديدة . خذ هذا وأطعن به بطنك بكل قواك ؛
وحينئذ لن تشعر إلا وقد تخلصت من نفسك ، وها هى ذى
الحبال والمناطق التى أعدتها للزملاء لكى يشنقوا أنفسهم
بسرعة . اختر ، لاتتردد كثيرا ، اطرق الحديد ولما يزل حارا.

يهوذا : إذا لم يكون لى مفر من القنوط ، إذا لم يكن لى بد من فقدان الأمل ، إذا كانت تنقصنى موهبة الأمل ، فلست فى حاجة إلى من يقنعنى بشجاعتى . هيا ، أسرع أيها القنوط ، لقد آن الآوان لكى تهتم بأمر موتى .

القنوط : أى موت تفضل ؟

يهوذا : أطلب إليك أن تشنقنى .

القنوط : لكيلا تنتظر طويلا ، خذ منى هذا الحبل . وستشنق نفسك بنفسك ، فهذا خير ما يمكنك أن تفعله . وسأساعدك طائعا مختارا ؛ لكى أخلصك بأسرع ما يمكن .

يهوذا : إذن ! هيا ! أريد السرعة ، وإلا انفجر قلبى من السعار . فى أى مشنقة سأشنق نفسى ؟ ما قولك ، أيها القنوط ؟

القنوط : هذه صفصافة عجوز عوجاء عريضة الأغصان فيها من القوة ما يكفى لحملك . فتسلقها ، وسأساعدك .

يهوذا : سأتعلق فى هذه الصفصافة وأشنق نفسى ، ولكنى سأبدأ بصنع آخية لكيلا أنتظر الموت طويلا .

القنوط : أهى جيدة الصنع ؟

يهوذا : عقدة مغزلية فيها من القوة ما يمكنها من حمل الوزن . أيتها الشياطين الكريهة البشعة ، أيتها الزمرة المطرودة من رحمة الله ، أيتها الطائفة المرذولة الملعونة فى الجحيم إلى الأبد ، هــذه هى كل وصيتى . فى اللهيب الأبدى سأترك لكم جسمى وروحى ، دون أى أمل فى الفرار .

بريخ : سأكون الموثق الذى يسجل هــذه الوصية النبيلة ، حتى لا أخدع فيها بعد . وها هو ذا الورق جاهزا .

يهوذا : أنت ياحمل السعار الثقيل الذى يفعم قلبى ، أيتحتم على ـ منذ الآن ـ أن أحملك كلا أبديا من الشقاء والتعاسة ؟ يا قلعة اليأس العالية ، المحشودة بالصرخات الضارعة المغطاة بصيحات البكاء المسعورة ، المحوطة بسور رفيع من صنع يد الشيطان ، التى ليست حفرها إلا آثارا عميقة ، إلا هوات لا شاطىء لها ولا قاع ، وليس فى أبهائها من زخارف ، ـ وا أسفاه ـ إلا صور بحيرات الشياطين ، انتظرينى أيتها القلعة ، أيتها الدار السحيقة المروعة . ففيك سيــــكون مستقرى . انتظرينى ، أيتها الهاوية المخيفة ، لأنى سأموت موتا أليما لا ينتهى ، فى حومة الــكبريت المصهور . انتظرنى

أيها السجن الصارم، أيها الأتون الأحمر من وهج نار حامية،
أيتها الحفرة المليئة بالأفاعى ، أيها النهر الجارى بالوحل النتن.
سآتى إليك مثقلا بالآلام والهموم ، وسأغوص فى حمئك .
ولكن قبل أن أختم ندائى أتجه إليك ، أيها الشيطان الذى
أطعته ، فأطلب إليك بصوت عال أن أودعك كلا جسمى
و روحى . (يشنق نفسه) .

بريخ : أيها القنوط ، ياأخى العزيز ، اهو قد مات ؟

القنوط : إنى أنتظر حتى أشق قلبه وأمزقه ، و بعد ذلك سينتهى
كل شىء بغاية السرعة ؛ وسيئول أمره إلى ما يؤول إليه .
والآن ، اذهب (1) .

بريخ : لا أدرى ماذا هنالك لست أسمعه يتنفس أو يسعل ، ومع
ذلك فإن روحه لاتستطيع الخروج . ماذا يمسكها ؟

القنوط : هيا ! إنى أعرف السبب . ذلك أن هذا المعتوه ، حين
نكث عهده أقبل على سيده ، وطبع عليه قبلة ، لذلك
لاتستطيع الروح ــ ولا يصح لها ــ أن تخرج من هذا الفم

---

(1) هذه الجملة مكتوبة بالإيطالية فى الأصل .

الشرير الذى مس شيئا له تلك الدرجة من القداسة .

بريخ : يجب شق بطنه وفتحها و إخراج أحشائه كلها ، حتى يتأتى له أن يموت بسهولة . أتوافق على ذلك يا أخى ؟

القنوط : أوافق عليه . ولنذهب ، فقد حصلت على فريستنا . لم يبق أمامنا إلا أن ننصرف .

مرثية

· السيدة العذراء (وعيسى بين ذراعيها) :-

عيسى ، ابنى العزيز عيسى ،

يا حبيبى وكل مالى فى الحياة

وليس لى فيها سواه ،

أنت الآن أكثر

حياة بالنسبة لأمك الحبيبة ،

يا كل مالى ، يا نورى الكامل ،

يا بهجتى الأولى والأخيرة ،

واأسفاه ! أى محيا ،

وأى صورة

تملأ قلبي باليأس ،

حين فقدت كل ما يعزيني ،

حين فقدت حبيبي،ابني،انشرح صدري

الذي أضمه ميتا بين يدي ؟

أيها الموت الخداع ،

كيف واتتك الجرأة

على اغتصاب ابني وحده

دون أن تلحقني به ؟

يا لشرك ! !

يا لخديعتك

حينما انقلبت على .

إبني ، وثمرة حشاي ! !

لقد تركتني يائسة ،

مقصاة .

محرومة

من كل خير يستطيع الوصول إلى .

وا أسفاه ! يا ذكراى الحلوة !

فيما مضى كانت عادتى أن أحملك

بمتعة ،

و بسرور ،

فى أيام صباك الغض !

بين ذراعى ، وكلى حبور ،

وأنظر إلى محياك العذب

و إلى تواضعك ،

و إلى بساطتك

التى كانت غاية فى الجمال ،

وكنت أقبلك ألف مرة ،

وكنت كلما قبلتك ابتهج قلبى ،

وكنت أرعاك ،

وكنت أحرسك ،

بأقصى عناية - يشهد الله -

على النحو الذى لا تستطيع الأم أكثر منه ،

وا أسفاه ! لم تصبح هذه القبلات كما كانت من قبل ،

ياملك السماوات ،

حين ترى عيناى

أنك قدمت موتاً مخجلا ،

موتاً شنيعاً أليماً ،

وأن جسدك المقدس الغالى ،

المفعم بالفضيلة ،

المستدر للرحمة ،

قد مزق فى كل مكان وكل ناحية .

اليوم الرابع

يقتصر اليوم الرابع على حكاية البعث . المقدمة (٢٧٤٥٢ـ٢٧٨٣٠) . جنود الرومان يقومون بحراسة القبر (٢٧٦٣١ ـ ٢٧٧٣٧) . اليهود يعملون على القبض على يوسف الراعى و إيداعه السجن (٢٧٧٣٨ـ٢٨٣٨٩) . النساء الصالحات يشترين العطور لتعطير عيسى (٢٨٣٩٠ ـ ٢٨٤٦٥) . والحواريون يبكون موت أستاذهم (٢٨٤٦٦ ـ ٢٨٧٨١) . بالرغم من الحراس ، و بالرغم من الجحيم ، عيسى يبعث حيا (٢٨٧٨٢ ـ ٢٩١١١) ، ثم يظهر أمام أمه (٢٩١١٢ ـ ٢٩١٨٠) . الملائكة يعلنون البعث للنساء الثلاث اللائى يحملن اسم مريم (٢٩١٨١ ـ ٢٩٢٩٨) ، وجنود الرومان

يستيقظون فيعلنون البعث (٢٩٢٦٩ ـ ٢٩٤٠٤) ؛ وبعد ذلك نرى مشاهد متفرقة يظهر فيها عيسى لحوارييه الذين تفرقوا بسبب المؤامرات الناشبة بين اليهود (٢٩٤٠٥ ـ ٣٢٧٨٤) . ثم الصعود إلى السماء مصحوبا بالابتهاج العام ، وسخط الجحيم (٣٢٧٨٤ ـ ٣٣٤٩١) ، ونزول الروح القدس على الحواريين (٣٣٤٩٢ ـ ٣٤٠٨٧) ، و ينتهى السر بمغزى تستأنف فيه المناقشة التى دارت فى الفردوس بين سيداتها الخمس : الحكمة ، والرحمة ، والحقيقة ، والعدالة ، والسلم ، فتتعانق كل من الرحمة والحقيقة ، والسلم والعدالة ، ويعود الممثل لآخر مرة من أجل الخاتمة النهائية والكلية (٣٤٠٥٨ ـ ٣٤٥٧٤) :

لكى نختتم سرنا هذا
فى حبور وشرف رفيع ،
ولكى تظهر نهايته على خير ماتكون ،
يجب أن نوجه الشكر لله الكبير
وننشد : لك الحمد يا ألله » .

أحكام حول تمثيلية آدم

تصوغ هذه القصيدة هبوط آدم وحواء ، وموت هابيل ، وتتابع المبشرين بظهور المسيح صياغة مسرحية . ومما يلاحظ فيها بوجه خاص : الطريقة التي اتبعها المؤلف في معالجة الموضوع الخاص بالإغراء . والحقيقة أن حواره ينقصه بعض البسط ؛ فقد اكتفى المؤلف بمائة بيت ، بمائة بيت صغير ذي ثمانية مقاطع ، لكي يصور نجاح الشيطان في إغراء حواء بعد أن أقصاه آدم عنه ، ثم في تصوير تغلب حواء بدورها على آدم .

وبالرغم من هذه السرعة المفرطة للحدث ، وبالرغم من قصر المدة التي منحت للممثلين من أجل أن يغيروا مشاعرهم ، يجب علينا أن نعترف بأن نفسيتهم تتسم اتساما قويا جدا بطابع الحقيقة، أما المحادثة بين مالان[1] وحواء، فقد أديرت بمهارة وذكاء كبيرين ؛ إذ يبدأ مالان باستهجان خشونة آدم وغلظته ، ثم يظهر رثاءه للمرأة في خضوعها لهذا الجلف ، وهي تلك المخلوقة الساحرة الحنون النضرة ؛ وتدافع عنه حواء في بداية الأمر ، ثم تضعف شيئا فشيئا إلى أن تستسلم للاغراء في نهاية الأمر . « أ ــ فارال » .

التاريخ المصور للأدب الفرنسي ، الصادر تحت إشراف الأستاذين : ج بيديه ، وب . آزار (المجلد الأول ، ص ٦٢) .

---

(١) الخبيث

تعتبر تمثيلية آدم أقدم درامة حررت كلها باللغة الفرنسية ، وقد كتبت في إقليم « النورمانيدية » فى جنوب انجلترة خلال السنين الأخيرة من القرن الثانى عشر ، ولابد أن تكون قد مثلت فى دير ، لافى دهليز كنيسة، كما يذكر فى كثير من الأحيان ، لأن تعقد الإخراج فيها يتطلب مكانا رحبا بعض الشىء . والمسرحية لا تكون كلا واحدا ، وإنما هى سلسلة متتابعة من المشاهد التى لا يربط بينها إلا أنها تدور كلها حول التجسد . وتفتتح المناظر الأولى منها بآية من الكتاب المقدس تنطوى على مادتها ، ولكن هذه المناظر ليست تسلسلا أمينا لما فى الآية .

ولا ينتهى الكلام فى مقتل هابيل (أول الصالحين والذى يعتبره علماء اللاهوت صورة للمخلص) حتى يتلوه — دون مرحلة انتقال — مشهد تتابع الأنبياء معلنين ظهور عيسى المسيح ، وهذا المشهد كله مستجد من موعظة للقديس «أوغسطين» حيث يبدأ المؤلف بذكر كلماتها بنصها ، ثم يعلق عليها باللغة الفرنسية ؛ وتتكون الخاتمة من النبوءة التى تصف علامات الساعة .

تعتبر هذه الدرامة — التى أصاب نصها كثير من التحريف بكل أسف — درامة ممتعة ، ليس فقط لما فيها من بدايات للتحليل النفسى الذى يبدو فى الأدوار التى تجرى بين حواء والشيطان ، بل بوجه خاص من أجل دقة الملاحظات « المكتوبة باللاتينية » والتى تصف الإخراج : فهى وثيقة

ذات أهمية عظمى ليس لدينا لها مثيل حتى نهاية القرن الخامس عشر .

أ ـ جنروا

المسرح الديني في فرنسا في القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر » .

قصائد ومقتطفات من فرنسا القديمة (ط باريس ، أ دى بوكار ، ١٩٢٤) (المقدمة ، ص ١٤ ـ ١٦) .

إذا كانت هذه الدرامة المكونة من حوالى ألف بيت تبدو مفككة الأوصال فى ظاهرها ، فإنها تنطوى على فكرة تجعل منها وحدة لاهوتية ؛ فهى تبدأ بالخطيئة الأولى ، وتنتهى بالأمل فى الخلاص بعد أن تتعرض لموت هابيل الذى يعتبر الجريمة الأولى المنبعثة من الخطيئة الأولى ، كما يعتبر فى الوقت نفسه الصورة الأولى للتضحية التى ستتحقق فوق الصليب من أجل فداء الآثمين . ولكن إذا كان من شأن الجزأين الأخيرين من الدرامة (وبوجه خاص الجزء الثالث الذى يشبه إلى حد كبير إحدى الدرامات الكنسية القديمة من دورة عيد الميلاد) أن يبهرا أذهان متديني العصور الوسطى الذين كانوا يتمثلون معناهما الديني ، فإن الجزء الأول وحده هو الذى يسترعى الاهتمام فى أيامنا هذه بفضل قيمته الدرامية. ه. شامار سر « آدم » .

نص مأخوذ من مخطوطة تور ـ ط أ . كولان باريس ، ١٩٢٥ ، (المقدمة ص ٧ ـ ٨)

« إذا كانت ملاحظات الإخراج المسجلة على نص هذه المسرحية ، والأناشيد الطقوسية البحتة التي تنسب فيها إلى جماعة المرتلين ، مكتوبة باللاتينية ، فإن هذه المسرحية في رشاقة أسلوبها ، و بذخ إخراجها تذكرنا بأن النصف الثاني من القرن الثاني عشر هو العصر الذهبي للأدب الفرنسي الوسيط ، حيث أخذت القصة البطولية تشب وتنمو . ولعل هذا هو السبب في أن الشيطان لا يبدو فيها في صورة ذلك الكائن القبيح الأشعر ذي القرون للكشر عن أنيابه، التي نجدها في المسرحيات اللاحقة، بل بالأحرى في صورة مضلل ظريف يستخدم مع أم البشر سحر الكلام وزخرفه .

وعنوان المسرحية « قداس تمثيل آدم » يشير بوضوح ، إلى أنها تعتبر بالرغم من غلبة الطابع الدنيوي عليها ، جزءا مكملا للعبادة ؛ ولكن لا يكاد المرء يبدأ بقراءة الملاحظة اللاتينية المسهبة حتى يرى نفسه أمام مسرحية حقيقية مستكملة الصفات . أليس من الممتع حقا أن نرى هذا الاهتمام من كاتب درامي يريد أن يضمن لعمله إخراجا متمشيا مع إدراكه الخاص للأمر ، وغنيا بالملابس ، ولا يدخر جهدا في إغداق أدق التوصيات حول الحركات التعبيرية وتناسقها مع الكلمات، والإلقاء الذي يريده واضحا قويا،

واحترام الأوزان التى اختارها ؟ وما القول فى هذه الإشارة الساذجة المعبرة التى يقول فيها - حينما يعرض الكلام عن القرد وس - : يجب إمكان النظر إليها باليد! ألا يخيل إلينا هنا أننا نسمع أوامر هاملت للمثلين فى قصر الدانيمركه والتى هى نفس الانتقادات التى كان يوجهها لممثليه الخرق !

ج . كوهين

المسرح فى فرنسا فى العصور الوسطى . « المسرح الدينى »
(ص ٢٤ - ٢٦ . ط . ريدر . باريس)

حول « معجزات السيدة العذراء »

« احتفظت لنا إحدى مخطوطات المكتبة الأهلية (وهى مخطوطة كانجيه القيمة) من أدب هذه الفترة بمجموعة تتكون من أربعين معجزة من معجزات السيدة العذراء. وهى ترجع إلى عدة مؤلفين ، وتتناثر تواريخها ، على ما يبدو ؛ على طول النصف الثانى من القرن . . . . .

والموضوعات هناليست بالجديدة ، فإن الأدب القصصى السابق قد استغل فيها على أيدى أناس كانوا يعرفونه جيدا ، ومن ذاك معجزات جوتيه Cautier وكوانسى Coincy، وأناشيد المفاخر ، وقصص المغامرات ، وسير القديسين والتواريخ ، ذلك أن هؤلاء المؤلفين كانوا قد طرقوا جميع الأبواب ، معتقدين فى أغلب الظن — أنهم قد يجدون فى كل حالة من الحالات حقيقه تاريخية . والواقع أننا نجد ذكر العذراء فى بعض النصوص

التى اتخذوها مصادر لهم ، فجعلوها هم تتدخل فى كل شىء . فهى التى تظهر فى مرحلة معينة ليس فقط لـكى تقود وتنجى البرآء الذين يستطيعون ذلك بأنفسهم ، بل أيضا لـكى تنجى الآثمين التائبين ، وبوجه خاص أولئك الذين ظلوا يؤمنون بأم المسيح حتى النهاية .

وليس فى وسعنا أن نشك فى أن « معجزات السيدة العذراء » عمل أدبى دينى ، وليس معنى ذلك أنها لم تهدف إلا إلى تربية المشاهدين . فإن العنصر الهزلى يبدو فيها واضحا . ويمـكننا أن نامح فنا الديـكور أقل بدائية ممـا كان ينتظر. فلاشك أن ظهور العذراء فى موكبها المـكون من طواويس الملائـكة وهم ينشدون الأناشيد ، وكان يحدث أثره العاطفى على هذا الجمهور السـاذج . وبوجه خاص لابد أن تقلبات الحدث المذهلة فى بعض الأحيان كانت تجعل الجماهير يلهثون، كما أن قصة امرأة تتهم خطأ بحبها زوج إبنتها حبا آثما فتقتله، ويـكتشف أمرها، ويحكم عليها بالموت حرقا، ثم تنتزعها السيدة العذراء من بين كومة النار ، وتقضى ما بقى من حياتها فى الدير ، لابد أن لها نفس الجاذبية التى تتمتع بها قصة سوقية من القصص الحديثة . ولـكن مناظر الحياة البرجوازية والشعبية هى التى تفرضها علينا المعجزات بأكبر قدر من التوفيق ؛ ذلك أنها تمكننا من النفاذ الى مساكن الأسر الصغيرة ، والمتواضعة، وتطلعنا على طريقتهم فى التفـكير والإحساس أكثر مما تطلعنا على تفاصيل حياتهم اليومية ، وهذا هو مبعث تلك المتعة الأصيلة

التى لا نعثر عليها بنسبة مساوية فى أى عمل معاصر. فهذه المعجزات الساذجة التى خلفها لنا القرن الرابع عشر تعكس لنا بعض الشىء روح فرنسا القديمة.

ل . فوليه

التاريخ المصور للأدب الفرنسى

الصادر تحت إشراف الأستاذين ج . بيدييه و ب . آزار .

(مجلد ١ ص ٩٩ - ١٠٠)

إن معجزات السيدة العذراء لا تمتعنا من حيث عقدتها التى تنحصر دائما فى التدخل الإعجازى للقديسة العذراء على طريقة المسرح الإسبانى ، ولكن بوجه خاص من حيث الحقيقة المذهلة التى تتسم بها مواضيعها المستقاة من سير القديس والفلكلور والأسطورة والملحمة ...

.... ويمكننا أن نحدس بما كان يمكن أن يصير إليه هذا النوع على أيدى مؤلفين من أمثال كالدرون Caldrou أو لوب دى فيجا Lope de Vega . غير أنه لم يتطور قط. ذلك أن هذا العرض المسمى « بالعبقرية » لم يصادفه ، فظل فى أيدى قوم من صنعاء النظم التافهين .

... وهكذا نرى أن التقوى ـ كما هى الحال فى « التفانى فى الصليب» لكالدرون ـ تمحو جميع الجرائم ، وأن التفانى فى السيدة العذراء آكد ترس ضد العقاب العادل ، وأن الرحمة الإلهية تقطع طريق العدالة البشرية الرتيب .

« جوستاف كوهين »

(للمصدر السالف ، ص ٤١ ـ ٤٣)

«... ليست أشخاص «المعجزات » بالألاعيب ولا بالمعانى الميتافيزيقية المجردة . إنهم أشخاص يعيشون . وهذا التتابع للمناظر القصيرة المؤثرة من شأنه ـ كما هى الحال فى المسرحين الإسبانى والشيكسبيرى ـ أن يوهم المشاهدين بواقعية ما يعرض عليهم من أحداث وأشخاص ...

وقد أحسن الأستاذ « ج . بارى » حين لاحظ أن المعجزة تكون شكلا دراميا حافلا بشتى وعود الازدهار ، ولكنها لم تلبث أن تفقد حظوتها لدى الجمهور ، مما عاقها عن تحقيق هذه الوعود . (بوسوا)

تاريخ الأدب الفرنسى الصادر تحت إشراف

ج كلفيه « العصور الوسطى » (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦)

حول سر الآلام

لأرنو جريبان

إن الانطباع الذى تتركه فى الذهن هذه التمثيلية فى عمومها يتسم بالقوة والعظمة .. فلماذا ـ إذن ـ لا تجذبنا هذه « الأسرار » التى استولت على إعجاب الجماهير فى القرن الخامس عشر ؟ ذلك لأننا لا نراعى فى حكمنا عليها سوى قيمتها الأدبية . والحقيقة أن التنفيذ فيها لا يتناسب مع عظمة التصور حتى لدى كاتب مثل جريبان ؛ فقد نرى فيها بيتا كان يمكن أن يكون

رائعا ، ولكنه حشى بضروب السطحية فى صورة ثمانية مقاطع . وكم نقابل فيها من مشهد جيد لولا ضروب الاعتراض الغثة المملة التى أقحمت فيه ، ولكن الذى ينقصها بوجه خاص هو الروح الدرامى ؛ فليس فيها حركة بمعنى الكامة . وهذا المسرح الذى يبدو كأنه يعج بالحياة والحركة مسرح جامد . وأغلب الظن أن احترام النصوص المقدسة هو الذى أدى إلى ذلك ، فلم يكن للشاعر حرية التصرف إلا فيما يختص برسم الشخصيات الهزلية .

ومع ذلك فإن الكثير من مشاهد جريبان أوجان ميشيل توحى إلينا بما كان يمكن لشاعر موهوب أن يستخرجه من موضوع محدد هذا التحديد الصارم . ولكن ليس هناك فى بناء « الأسرار » مكان للموهبة ، بالرغم مما ينطوى عليه من التعقيد والمقدرة العلمية . فهناك أرصدة مالية يقف الشاعر إزاءها بجانب النجار على قدم المساواة . وكلاهما يشتغل بكل جهده فى نفس العمل ، وهو التربية والتسلية ، ولم يفكر أحد فى أن يطلب من الشاعر أن يفعل خيراً مما يفعل ، أو فى أن يزوده بالوسائل التى تمكنه من ذلك . فمؤلفو الأسرار كانوا رجال قانون وموثقى عقود ، وبوجه خاص رجال دين مضطرين للخضوع لما توجبه عليهم مهنتهم ، ثم كيف يجدون لديهم الوقت لكى يتأملوا ـ على مهل ـ هذه القصائد الطويلة التى تصل إلى ٣٠٠٠٠ بيت لدى جريبان ؟ وإلى أكثر من ٦٠٠٠٠ فى « أعمال الرسل » ....

.... إذا أردنا أن ندرك الأصالة الحقيقية للأسرار . فإنه يجب علينا ألا نقتصر على قراءتها ، وإنما ينبغى أن نعيد وضعها فى إطارها ، وأن نشاهد بخيالنا هذا التمثيل الفخم ؛ وأن ننظر إلى الجمهور أكثر مما ننظر إلى المؤلف .

فلم يكن ثراء الشكل أو جماله هو الذى يبهر تلك الجموع ، بل الموضوع نفسه بل الدين وقد وضع فى متناولهم ، حيث كانوا يرون الإله وهو يشرح بنفسه للمؤمنين و يبين لهم . وعلى النحو كان مسيحو القرن الخامس عشر يتلقون — وهم فى حالة تجل وانجذاب — أفخم دروس دينية كان يمكن أن يتلقوها .

« ل . فوليه »

(المرجع السابق ، ص ١٠٣ — ١٠٤)

« إن الأثر الشعرى العظيم الذى خلفه لنا القرن الخامس عشر ، والذى لا يقل فى عظمته عن إحدى الكاتدرائيات قد نشأ فى كاتدرائية ، فى نتردام باريس . وهذا الأثر الذى يشبه الأروقة المزينة بالتماثيل والصور فى تلك الكنيسة الجليلة التى يكاد جمالها القوى يسحق الرأى حتى بالنسبة للأقدمين الذين كانوا يتأملونها ، هذا الأثر عبارة عن درامة ، عن « سر » كما كانوا يسمونه فى ذلك الحين .

هذه الدرامة بأشخاصها العديدين تذكرنا بالتماثيل والصور الكبيرة

والصغيرة التي تزين الكاتدرائية، وتبعث فيها الحياة، كما أن مقطوعاتها ذات الطابع الغنائي، وموسيقاها ، وملابس ممثليها ونكراتها ، تزينها كما تزين الكنيسة صورها وزجاجها الملون ، وهذه الدرامة المسيحية كالكنيسة، عمل منطقي شيد بصورة منطقية ، و بنى بمواد نظيفة .

« والآلام » كتاب كامل طويل ، بل شديد الطول ، كما أنه رقيق ولطيف أيضاً ، كتاب عالم وموسيقى ، كتاب تنعكس فيه صورة كاتدرائية نتردام الباريسية ينسبها وموسيقى جماعتها الترتيلية ، باحتفالاتها الجليلة ؛ و بالاختصار بكل بتير طقوس حياتها الدينية .

ولابد لنا من الاعتراف بأن جزءا كبيرا من المتعة والجمال اللذين يحس بهما فى « سر الآلام » كان يرجع إلى إخراجه ، إلى مواكبه ، إلى الموسيقى التى كانت تصحبه ، وتجعل منه بوعا من الدرامة الموسيقية ، أو من الأوبرا .

(حول الإخراج) :

... كان هذا الإخراج آنيا ، كما هو معروف ، أى أن كل أماكن الأحداث التى تغلق بوساطة أستار كانت تقام كلها منذ البداية على تخوت قد يصل طولها إلى ثلاثين متراً . وكانت تنضد على مستوى واحد أو على مستويات متدرجة . وهكذا كان المرء يرى تحت بصره دائماً نفس الديكور

الذى يمثل — على سبيل المثال — الجحيم ، وهى فوهة ضخمة تفتح وتغلق وتقذف باللهب والدخان، كما يمثل طستا مليئا بالماء يشير إلى البحر ،أو إلى بحيرة طبرية ، وأبوابا ضخمة تمثل بيت المقدس والقصر والمعبد والناصرة ، ويمثل الفردوس ، وهى عبارة عن كوخ تعلوه شمس ساطعة .

وكان كل أشخاص المسرحية ـ حتى أولئك الذين لا يشتركون فى الدور الجارى ـ يظلون على المسرح ، فيكونون بذلك لوحات حية تحت أبصار المشاهدين . وبالاختصار كان يمكن أن يظل هناك أربعمائة شخص داخل أماكنهم أوأمامها ، فتصبح هذه الأماكن وكأنها مقصورات لهم ، أما هم فيشبهون تلك المئات من التماثيل التى تحلى كوى الأروقة فى الكنائس القوطية . ويمكننا القول بأنه كان يرى هناك عالم بأسره ، غارق فى إيمانه يدعو وينشد فى صوت واحد ، ويتأمل الممثلين أمامه وكأنهم عالم آخر .

« ب — شامبيون »

(التاريخ الشعرى للقرن الخامس عشر مجلد ٢ ، ط ١٩٢٣ ، ص١٣٣ ـ ١٤٨)

« هناك سبب رئيسى يعوق « السر » عن احتلال مكانه فى صف الدرامات العظيمة التى تفرض نفسها بصورة دائمة على إعجاب العالم الغربى، وذلك أنها لم تعرف كيف تحد من طموحها ، إنهـا أرادت أن تضم تاريخ السلالة البشرية والكون كله بين ذراعيهـا فى ضمة واحدة ، أرادت أن

تقدم للكائن البشرى مسرحاً إلهيا . ولكن لما كان الإله هو الكون مدركا ذاته ، كان من المستحيل حصر هذا الكون الكبير فى كون المسرح ، ذلك الكون الصغير ، حتى ولو جعل الرب من نفسه إنساناً .ومن هنا كان ظهور المسيح (فى سر الآلام) يحرك عواطفنا ، ويجذبنا بمقدار اقتراب دوره فى الحياة من دور الإنسان . ولكن أمه تجذبنا أكثر من ذلك حين تخلع عليها واقعية كاتب مثل جريبان عواطف طبيعية ؛ ويمتعنا أكثر من هذا وذاك دور يهوذا حيث نرى التعاسة والجبن والدناءه والندم المر ترتبط بضعف الإنسان وميوله الشريره . وهذه أيضا هى الحال بالنسبة لمسرح أوبرا مارجو الألمانى . ولا شك أن القول بأن مسرح العصور الوسطى لم يتيسر له التقاء الموضوع بالعبقرية ، ذلك الشرط الضرورى لظهور الروائع قول غير كاف ، ولعل من الأصوب أن يقال بأنه قد حاول عملا مستحيلا ، حاول الإقدام على مشروع ميئوس من تحقيقه ، وهو أن يمثل عمل الخالق فوق تخوت الميدان العام ، وفى قلب المدينة وتحت سماء الأله ، ولكن هذه المحاولة قد تركت ، بالرغم من هذا ، أطلالا رائعة جديرة بتلك الفترة التى استطاعت تصوير الكوميديا الآلهية وتحقيقها على يد دانتى الإيطالى .

« ج . كوهين »

(المرجع سالف الذكر ، ص ٧٤ — ٧٥)

مطبعة المعرفة
عمارة التأمين ميدان لاظوغلي
ت ٣٣٩٩٠
١٠٠٤٧٧

ص
١٠